شهاب

رواية

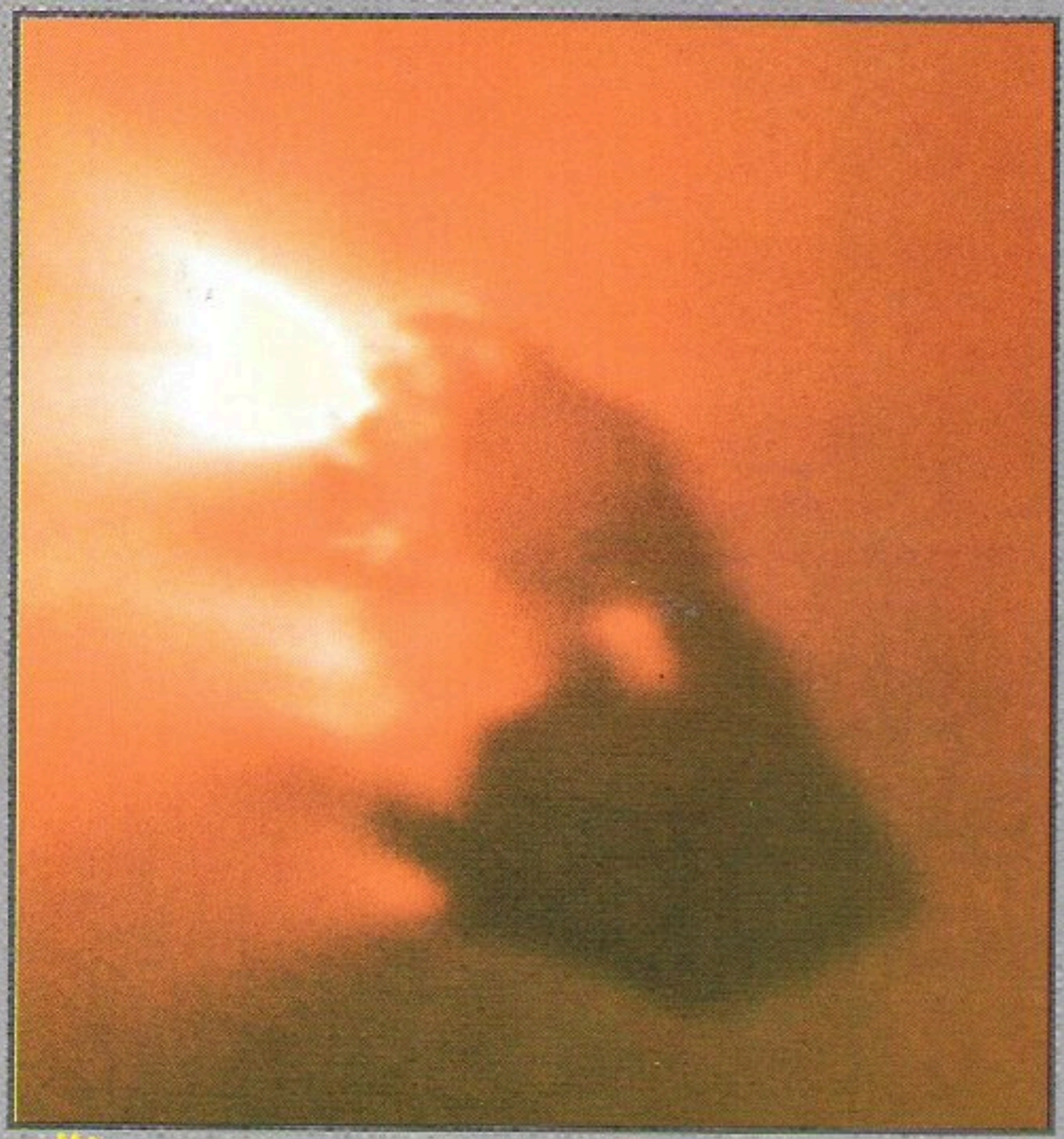

صافي صافي

٢٠٠١

شهاب

رواية

صافي صافي

٢٠٠١

شهاب   رواية   صافي صافي

الروايات المنشورة :

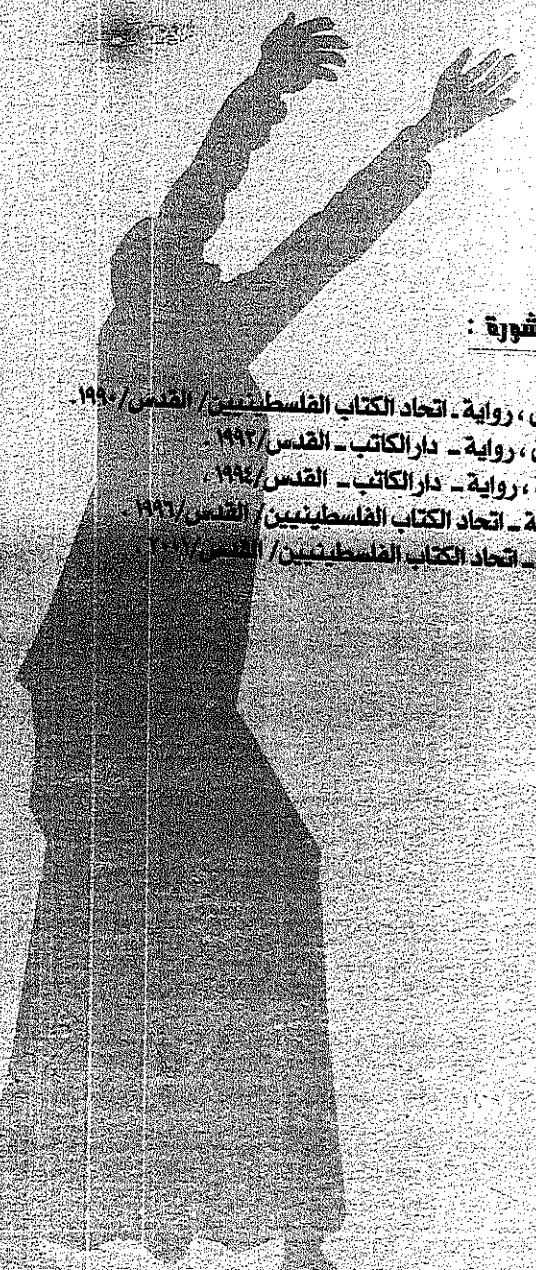

١- الحاج اسماعيل ، رواية - اتحاد الكتاب الفلسطينيين/ القدس/ ١٩٩٠.
٢- الحلم المسروق ، رواية - دار الكاتب - القدس/ ١٩٩٢.
٣- الصعود ثانية ، رواية - دار الكاتب - القدس/ ١٩٩٤.
٤- اليسيرة ، رواية - اتحاد الكتاب الفلسطينيين/ القدس/ ١٩٩٦.
٥- شهاب ، رواية - اتحاد الكتاب الفلسطينيين/ القدس/ ٢٠٠١.

تصميم الغلاف شريف محال
٨٧٥٦٦٤ / ٠٥٩

منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين

شهاب
رواية
٢٠٠١
اتحاد الكتاب الفلسطينيين- القدس

حقوق الطبع محفوظة

طبع هذا الكتاب على نفقة مطبعة أبو غوش- رام الله

(١)

صحا "الظبع" مبكراً، حمل عصاه الطويلة الغليظة، وخرج من البيت، توجه نحو التلة الغربية لقرية اليسيرة علّه يعثر على شهاب إذا ما أطلق أهالي المدينة سراحه. تمشى بين أكوام الغلة التي لم تنقل بعد إلى البيادر، وتوجه نحو طرف الشارع. وقف في المكان الذي نصب فيه حاجزاً، ومنع أهالي المدينة من الدخول أو الخروج. كان منتشياً بما فعله في الأيام الثلاثة الماضية على مرأى من أهالي قريته، وأهالي القرى المجاورة، وأهالي المدينة. استرجع ما فعله، واسترجع المكان الذي قطع فيه الإمدادات عن المستوطنة القريبة يوم كان مشرداً. تحسس عصاه، وتحسس ساعده الذي يشبه تلك العصا التي يحملها ويشد عليها. تحسس العروق التي برزت، أخذ نفساً عميقاً، رفع رأسه نحو السماء، وخطا خطوات واثقة إلى الحقول المجاورة. صعد على صخرة عالية تطل على القرية جميعها. كان أهالي القرية ما زالوا نياماً، فالمصابيح مطفأة، والصمت يلف القرية، ولا يعكر صفو المكان سوى نباح كلب من هنا وصياح ديك من هناك. انتصب بجسده الطويل وبعضلاته المفتولة مثل تمثال على الصخرة، ورفع عصاه عالياً، شعر بأنه مَلِكُ هذه القرية، فحادثة اختطاف شهاب زادت من سطوته، وزادت من تعلق الناس به. كان على قدر المسؤولية، فالشدائد محك الرجال. تحدى "الحاج مسعود"، ونفذ خطته، وولاه الشباب قيادتهم لقطع الطريق حتى يتم الإفراج عن شهاب، وأوقف العربات وأرجع أهالي المدينة إلى مدينتهم، وتحدى الإنجليز في إقامة الحاجز، وبات اسمه على كل لسان. انتقم لأهالي اليسيرة، وعرّف القاصي والداني من تكون اليسيرة ومن يكون أهلها. أطال الانتصاب على الصخرة العالية حتى سمع الشيخ "عبد النبي" ينادي في الناس لصلاة الفجر، فجلس وراح يتفكر في هذه الدنيا.

أفاق الناس من نومهم. صلوا الفجر، وتوجهوا زرافات زرافات نحو الحقول، مروا به، ألقوا عليه تحية الصباح، وسألوه عن سبب هذه الجلسة. ظنوا أنه قضى الليلة حيث هو، يحرس اليسيرة وأهلها. انتصب ثانية، وقال لهم: "إذا لم يرجع شهاب اليوم، فلكل حادث حديث". تجمعوا حوله، وسادت فترة من الصمت. كانوا في حالة خجل، فهو يسهر على أمنهم، ويحرس قريتهم، ويُعرّض نفسه للأخطار من أجلهم، وهم يتوجهون إلى الحقول سعياً وراء لقمة عيشهم. شعر بما كانوا يفكرون فيه. تطلع إليهم، ودعاهم أن يذهبوا إلى العمل قبل الاكتواء بحرارة الشمس.

جاءه الشيخ "عبد النبي"، جلس على صخرة مقابله أقل ارتفاعاً، ولم يقل شيئاً سوى أن راح يسبح بالله، ويتمتم بأدعية. عرف "الحاج مسعود" بالأمر، فجاء هو الآخر ووقف مقابلهما. كان "الظبع" يمسك العصا بيديه الاثنتين، ويحني عليها رأسه ويدق بها الصخرة من وقت لآخر، وكان الشيخ يقرأ آيات من القرآن من الصعب تحديد ما هي. حَوقَلَ "الحاج مسعود"، وقال: "بيفرجها الله، شهاب راح يرجع، والأرض باسم شهاب، والقوشان هو بدعة، لكننا سنحصل عليه غصباً عن دائرة تسجيل الأراضي". ودعاهم لشرب القهوة في المضافة.

*****

يومها كان الجمعة.

كان الرعاة يرعون حلالهم في الجبال، وكان الحصادون يحصدون حقولهم. غنوا لشهاب بدل أن يغنوا لقمحهم وشعيرهم وزيجات أبنائهم وبناتهم. غنوا للذي غاب عنهم منذ ستة أيام وكأنها الدهر. اختطفته يد المدينة وهو يتجول في أسواقها التي يرتادها كل يوم المئات من أبناء القرى المجاورة. غنوا للذي غاب هذه المرة من أجل الحصول على "قوشان" الأرض التي ورثها عن أبيه من دائرة الأراضي في المدينة، ولم يعد. اختلطت أغانيهم بمعاني الشوق للقائه

والحرقة على فراقه. غنوا لوسامة وجهه، ولطول قامته، ولبياض بشرته، ولشعره الأشقر. بكوا وهم يرددون مقاطع حزينة لعدم قدرة أحد من أهالي اليسيرة على فك أسر شهاب الذي طال. غنوا ل "الظبع" حين كان شابا، وواجه الإنجليز وقتل منهم عددا كبيرا، ومنع حافلات اليهود من المرور أمام اليسيرة. فعلوا ذلك وأيديهم تقبض على المناجل وتطيح بالزرع أرضا، ليلمه الصبية من بعدهم على شكل شمائل تنقلها الجمال إلى البيادر الغربية. ردد الصبية أغاني آبائهم وأمهاتهم وهم يروحون ويجيئون والدموع في عيونهم. إنها المصيبة التي حلت باليسيرة قبل طرد أهاليها ومن ثم تدميرها. أرخ لها بعض كبار السن كما أرخوا لغيرها من الحوادث الكبيرة، كقتل "الظبع" لجنود إنجليز، وقطع الإمدادات عن المستوطنة اليهودية القريبة، وعرس "الظبع"، ومولد "أبو عمي" و"قظيعة"، وعرسهما. أحس بهذه المصيبة الشيخ الكبير والطفل الصغير، وأحست بها نساء القرية وصباياها اللواتي أعجبن بشهاب أشد إعجاب، وعرفن معنى الحب والعشق من خلاله. غاب شهاب منذ ستة أيام دون أن يعرف أهالي اليسيرة كيف تنتهي هذه المصيبة، وها هو اليوم السابع يمر رويدا رويدا دون أن يعود!!!

حزن أهالي اليسيرة كثيرا، وتساقطت دموع الكبار كما تتساقط دموع الصغار. بكوا بحرقة، واعتصر الألم قلوبهم، وهاموا على وجوههم كما يهيم طفل على وجهه دون معرفة المصير الذي ينتظره. إنهم أهالي اليسيرة، وإنه شهاب ابن اليسيرة، ومثل أهالي اليسيرة كمثل الجسد الواحد أكانوا ظالمين أو مظلومين، يقفون مع الظالم ومع المظلوم من أبناء جلدتهم، يقفون مع الظالم دون أن يردوه عن ظلمه، وهم في الأفراح جسد واحد أكان الفرح لهذه الحمولة أو تلك. كان يومها الجمعة، وكانت الساعة التاسعة صباحا من شهر حزيران، حين بدأت الشمس تسليط أشعتها على جلود الذين تجرأوا على الحصاد في هذا الوقت، فبلل العرق جباههم، وشلت قواهم بسبب العمل الذي ابتدأ في الرابعة صباحا. شوهدت الأغنام في تلك الساعة بالذات وقد امتنعت عن أكل عشبها، وتطلعت نحو السماء داعية أو خائفة. دارت نحو الغرب وثغت، وإذا بالأبقار تفعل مثلها وتخور،

والحمير والأحصنة تتوقف في طريقها وهي تحمل أحمالها، وكلاب القرية تتجمع فوق المرتفعات الصخرية ويعلو صوت نباحها، والديكة تصيح بحِدّة. أصيب الناس بالذهول، فمنهم من أغمي عليه، ومنهم من سجد لله تعالى ظاناً أن القيامة ستحل مع عصر هذا اليوم من حزيران. أصابهم الوجوم، ووقفوا مشدوهين من شيء لا يعرفونه تماماً.

مرت بضع دقائق والناس يراقبون ما يحدث لحيواناتهم. توقفت المناجل عن العمل، وصمتت أصوات تلاطم سنابل النباتات وسيقانها، وتحول الحصادون من أغاني عودة شهاب إلى ذكر الله تعالى واستغفاره. ساد السكون الجبال والسهول والتلال والقرية كلها، فإذا بصوت أشبه بمن ينفخ في الصور يُسمع من بعيد، بعيد جداً: شهاب .. شهاب. مرت لحظات أخرى خالها الناس طويلة ليُسمع هذا الصوت المتهدج ثانية: شهاب .. شهاب. ساد الصمت، فإذا بصاحب الصوت يستعيد ثقته بنفسه صارخاً: شهاب عاد .. عاد شهاب. ارتد صدى الصوت بين الجبال والأودية. ردده الشجر والحجر، فانتقل من هذا الجبل إلى الجبل الذي يليه، ماراً بالتلال والأودية، ورددده الرعاة، وبات الصوت يُسمع من كل جهة حول اليسيرة. تحولت أصوات كل الذين في السهول والجبال إلى صوت واحد يعلو فرحاً: شهاب عاد .. عاد شهاب. وصل الصوت بيوت القرية، فسمعه العجائز والصبية، ورددوا هم الآخرون بأصواتهم الخافتة والحادة والممزوجة بحشرجة ما سمعوه. صعد الشيخ "عبد النبي" فوق سطح علية المختار ونادى: شهاب عاد .. عاد شهاب. ثم كبر: الله أكبر الله أكبر. ثم ختمه بما ابتدأ به. خرج كل الذين في القرية صغيرها وكبيرها، ذكورها وإناثها، شيبها وشبابها، وهم يهتفون: "عاد شهاب .. شهاب عاد".

كانت "شرحة" تعمل في البيت الذي غاب عنه حبيبها منذ أسبوع، تَشم رائحة ملابس الزوج الجميل. كانت تتحسس ثياب الذي قاتلت من أجله كل الصبايا، وتنافست عليه مع الأكثر منها جمالاً، وانتصرت عليهن. ظنت الظنون

لغياب زوجها. ظنت أن مؤامرة من صبايا القرية حيكت ضدها بعد فوزها به، وظنت أنه تزوج من بنات المدينة فغاب عنها عند زوجة أخرى، وما قصة "القوشان" إلا استمرار لمغامراته الجنسية المعروفة. ظنت أن بنات مواخير المدينة أوقعن به فأصابه شر من الشرور. طرقت "شرحة" باب "قظيعة" غير مرة لتقرأ لها فنجان قهوتها وكف يدها، وزارت بيت المختار غير مرة خلال هذا الأسبوع ترجوه أن يتدخل للعثور على شهاب، ورجت "الظبع" أن يأتي بزوجها وله ما أراد، وطلبت من "الواوي" أن يبحث عنه في أي مكان في المدينة بطريقته الخاصة. سمعت "شرحة" صباح اليوم الجمعة صوت منادٍ ينادي: "شهاب .. شهاب عاد .. عاد شهاب".

أجفلت من الصوت الذي كان يرتد في كل زاوية من بيتها وجسدها وعقلها. سقطت ملابس شهاب من يديها. انتصبت قامتها. اتجهت نحو الباب. سمعت الصوت ثانية وثالثة .. وسابعة. أسرعت باتجاه الصوت وهي تنادي: "شهاب .. شهاب". في الطريق، قابلت صديقاتها، كن يركضن نحو بيتها، ليبشرنها بالخبر السعيد، فإذا بها منفولة الشعر، منكوشته، لابسة ما اتسخ من الثياب، وما لاكته الليالي الست الأخيرة وهي تنام وحدها. كانت منتفخة العينين، غير مرتبة الوجه. رحن يحضنها ويقبلنها ويهنئنها بعودة زوجها ابن اليسيرة، لكنها كانت مندفعة نحو هدفها. أمسكن بها بقوة، وقلن: "يا مجنونة، بهذا الشكل تقابل شرحة شهاب!". قالت: "أنا شرحة، وهو حبيبي". أمسكن بها، وأقنعنها أن تلبس ما يليق بفرحة اللقاء. جاء "الواوي" يركض. رآها. وقف مقابلها بجسده الممتلئ والعرق يتصبب منه، وقال: "قلت لك راح يرجع اليوم". تطلعت إليه الصبايا شزراً، وقلن: "أنت مثل الجاسوس، تنفع الغريب ولا تنفع أهالي قريتك، والله لولا الظبع ما رجع". تجاهلن وجوده. أدرن وجوههن إلى الجهة المقابلة، ثم أخذنها إلى البيت وقمن بتغسيلها وتلبيسها وتزيينها وهن يغنين لها، وتغني معهن:

افرشوا الحارة شنابر
تاتمرق بنت الأكابـــر
و"شرحة" كان شهاب نصيبها
خمسة في العين لا يصيبها
افرشوا الحارة حرير
تاتمرق بنت الأمـــير
و"شرحة" كان شهاب عريسها
ومين غير شهاب يمســـــها

غنين ورقصن معها. توالت جموع الصبايا على بيت شهاب. انضممـــن للمغنيات والراقصات. ألبسن "شرحة" ثوب العروس الأبيض، ذلك الثـــوب الـــذي لبسته يوم عرسها قبل حوالي السنة، ذلك الثوب الذي لم يلمس جسداً غير جسـدها، ولم يطله إلا بعض الغبار يوم عرسها، واحتفظت به طيلة السنة، ولبســته اليـــوم، وخرجن إلى الساحات يزففن "شرحة" لشهاب ثانية. كانت "شرحة" ترقص وتغنـــي معهن، وتحثهن على المسير، وأصداء الأصوات ما زالت تتردد في القرية: "شهاب عاد .. عاد شهاب".

تنادى أعضاء فرقة الكشافة وتجمعوا على عجلة من أمرهم. لبسوا زيـــهم الخاص، وحملوا الطبول والعصي والصولجانات والمزامـــير كمـــا يفعلـــون فـــي المناسبات العامة في اليسيرة أو خارجها. انتظموا في صفوف، وامتثلـــوا لأوامـــر "الطبع" الذي رئس الفرقة: "استرح .. استعد". دوزن كل منهم قامته وأداته، وأعلن القائد بدء المسيرة، ثم ساروا غرباً لملاقاة شهاب الذي عاد. ساروا يدقون طبولهم، ويصحجون صولجاناتهم، ويزمرون أبواقهم، ويدقون الأرض الطينيـــة بأرجلـــهم، فتناثر الغبار حولهم ليشكل هالة أشبه بغيوم السماء أو بضباب الأرض. كان لحـــن العزف احتفالياً، بالضبط كما كانوا يفعلون عند استقبال مدير دائرة المنطقـــة عنـــد

زيارته للقرية، أو عند زيارة مدير المعارف للمدرسة، أو عند مرور زعيم وطنـــي من الشارع الرئيسي أمام القرية.

سار الأهالي في مسيرة لم يشهد تاريخ اليسيرة مثيلاً لها من قبل، ورغـــم الجمع الكبير يوم عرس "الطبع" و"أبو عمي" بـ "جليلة" و"فظيعـــة"، إلا أنـــهم لـــم يحظوا بمثل هذا الحشد أو الاهتمام، ولم تكن جنازة المختار السابق "أبـــو الحـــاج مسعود" أكثر جمعاً للناس. فإذا كانت هذه المناسبات هي المحطات البارزة في حياة اليسيرة، فإن ما حدث لشهاب هو أبرز المحطـــات علـــى الإطـــلاق. وإذا كـــانت المناسبات السابقة موضعاً لمشاركة جموع اليسيرة، فإن لقاء شهاب شـــارك فيـــه الناس والحيوانات من كلاب وأغنام وأبقار وحمير ودجاج وقطط وجمـــال. نعـــم، كانت هذه المناسبة هي الوحيدة التي شاركت فيها الحيوانات بمحض إرادتها، فلـــم يأتوا بالخيل ليظهروا الوجاهة، ولم يأتوا بالجمال لتحمل عروساً على هـــودج. لـــم يرغم أحد من أبناء القرية هذه الحيوانات للمشاركة في المسيرة، بل سارت علـــى سجيتها، سارت على الفطرة الأولى، فكانت جزءاً جديداً ومـــهماً فـــي المناســـبات الجماهيرية في القرية. وإذا كان شباب القرية وشاباتها قد اصطفـــوا فـــي فرقـــة الكشافة، وإذا كان الشيوخ والصبية والنساء قد غنوا ورقصوا في هذا الحفل، فـــإن الحيوانات غنت هي الأخرى ورقصت بطريقة فهمها أهالي اليسيرة على أنها غنـــاء ورقص. في الطريق إلى الغرب، في الطريق إلى المدينة، تجمع مـــن تبقـــى مـــن أهالي القرية، داروا حول فرقة الكشافة بشكل غير منتظم، وساروا معـــها. كلمـــا سارت الفرقة متراً ازداد عدد المشاركين، جاءوا من الحقول والجبـــال والأوديـــة والسهول ومن الجهات كلها، قافزين فوق السلاسل الحجرية، ومتخطين الأشواك و "المقاثي". أتوا من فوق، وأتوا من تحت، حتى قيل إن عجائز القرية شاهدوا أمواتـــاً يشاركون في المسيرة. لم يتكلموا معهم مباشرة، ولكنهم رأوهم. رأوا "أبو الحـــاج مسعود" يلبس عباءة بيضاء، ويتقدم الجمع. ورأوا "أم فظيعة" وهي تلبـــس ثوبـــها الأبيض، وقيل إنها زغردت غير مرة. شاهدوا أيضاً شهداء القرية الذين حـــاربوا زمن الأتراك، وحاربوا الإنجليز والمستوطنين. شاهدوا كل هؤلاء يشاركون فـــي

المسيرة. إنها مسيرة الجميع، مسيرة أهالي اليسيرة، مسيرة البشر والحيوانات جميعا، مسيرة أهالي اليسيرة وأهالي القرى المجاورة. إنه عرس شهاب الثاني، فشهاب الجميل، طويل القامة، الأشقر، الوسيم، يجتذب الجميع في حضوره وفي غيابه، في وداعه وفي لقائه، في أسره وفي فك أسره.

سارت المسيرة، ابتدأت من مركز القرية متجهة غربا، وكبرت شيئا فشيئا. مشى "أبو عمي" حول الفرقة وكأنه يتفقد أعضاءها واحدا واحدا، ويردد بأعلى صوته: "شهاب جاب القوشان". كان يدور حول الفرقة، تجده مرة أمامها، ومرة على يمينها ومرة على يسارها ومرة رابعة خلفها. وقف "الواوي" بعيدا، فهو يهاب "الظبع"، ويخشى كلامه الجارح، لكنه كان مصرا على مشاركة الناس هذه المناسبة بعدما قيل عن علاقاته المشبوهة بالإنجليز، وعن العبث بآثار القرية وبيعها لهم. وقف بعيدا دون أن يتفوه بكلمة. كان يراقب هذا الحفل، ولا يملك سوى مراقبته. سارت الفرقة بطيئة إلى حد ما، والناس يدعون فرقة الكشافة إلى الإسراع قليلا، لكن الحشد الذي حولها أعاق حركتها. أعاقت حركة الصبية سرعتها، وطغت ضجتهم على موسيقاها، ولم يلق صراخ "الظبع" في الناس طالبا منهم الهدوء أذنا صاغية. اقترب "الظبع" من حملة الطبول وصرخ فيهم أن يدقوها بكل ما لديهم من قوة، حتى أن إحدى عصي القرع كسرت، فاستبدلت بعصا "الحاج مسعود". لم تعد الفرقة موحدة، إذ فرقتها حركات الصبية وضيق الطريق، فاختلطت الأمور بعضها ببعض، وهناك من الصبية الذين التقطوا عصيا من أطراف الشارع، أو قطعوها من الأشجار في الحقول، دقوا الطبول مع الداقين، وساروا مع السائرين، وطوحوا بها في الهواء والتقطوها كما يفعل "الظبع" مع عصاه الطويلة الغليظة. لم تعد الفرقة فرقة، فبدل أن يكون طول صفها عشرين مترا أصبح خمسين وأكثر، فتسمع قرع طبل هنا، وصوت بوق وصحج صولجان هناك وهناك. لم يجد "الظبع" بدا من استعمال عضلاته وعصاه المشهورة. هدد بها وزمجر، فابتعد الصبية من هذه الجهة واختلطوا بها من الجهة الأخرى، فحملهم "الظبع" كما يحمل كيسا من خيش التبن، وألقى بهم إلى طرف الطريق. لكن ذلك لم

يحل المشكلة، تفرقت الفرقة، فأمرها "الظبع" أن تتوقف عن المراسم التي تؤديها، وأن تتجمع خارج الطريق. وقف على ربوة وراح يخاطبهم بأعلى صوته لينظموا أنفسهم. قال: "لنفرض أن هذا عرس، وهو بالفعل عرس جديد لليسيرة، لنتصرف فيه كما نتصرف في الأعراس، النساء قدام، والرجال وراء". فصرخ "الحاج مسعود": "يا أخي خلصنا من هالشغلة، صادرت عصاي وتريد أن تتحكم فينا، نريد أن نصل شهاب بسرعة". لم يحتمل "الظبع" ما قاله المختار، لم يحتمل هذه الجرأة التي دفعته للصراخ فيه بهذا الشكل وأمام الناس رغم أنه متزوج من أخته ضرة على زوجته الأولى "جليلة"، فصرخ به "الظبع": "علي الطلاق من أختك مظوية، اللي أخذتها على عينك، إذا ما مشيت مثل ما قلت لك، لتنام أختك في بيتك إلى الأبد، وخليها تقاقعك وتقاقع مرتك، أو أضربك بعصاك التي لا تستخدمها إلا للكبرة والمخترة". سكت "الحاج مسعود" مكرها. اقترب "الواوي" بقامته المربوعة من "الحاج مسعود"، وسار وراءه إذا سار، وتوقف وراءه إذا توقف.

سمعت أصوات الغناء الآتية من وسط القرية. كانت "شرحة" تلبس ثوب العروس، والنساء يزففنها في موكب أشبه بالعرس. وجدت النساء فرصة للتجمع في موكب "شرحة". أهملن أوامر "الظبع"، وعبرن عن أنفسهن كما يحلو لهن. انتظر الجمع مرور موكب النساء، وسارت الفرقة وراءه، ثم سار الرجال، أما الصبية فتبعثروا بين هذه التجمعات. لم يتوقف "أبو عمي" من الدوران حول الفرقة ومحاولة عزل أعضائها عن باقي الناس. ظل يدور حول الفرقة بثيابه الرثة، وشعره الأشعث، وجسمه النحيل. دار حولها ونظر في عيني كل الذين وجدهم أمامه وكأنه يطلب منهم أن ينتظموا في هذا الحفل. كان يميل برأسه إلى اليمين، ويحني جسده إلى الأمام، لكن ذلك لم يجد نفعا، فيصرخ بأعلى صوته: "شهاب جاب القوشان". صرخ به "الظبع": "ولك بدري على هالحكي، احنا شايفين قوشان أو غيره! خلينا نقوم بشغلنا". اختلطت أصوات الطبول بأصوات صياح الصبية وبأناشيد بعضهم، وبغناء النساء ودردشاتهن، وبتعليقات الرجال ومماحكاتهم.

سارت المسيرة رغم الفوضى. شعر كل أهالي القرية بوحدتهم أكثر من أي مناسبة أخرى، وما الفوضى غير المخططة إلا سمة من سمات أهالي اليسيرة.

سمع أهالي القرى المجاورة أصوات الرعاة والحصادين، وأصوات الحيوانات وطبول الكشافة. عرفوا أن شهاب قد عاد، فأعلنوا ذلك من على أسطح الجوامع والعلالي. جاءت وفود كثيرة وكبيرة من تلك القرى، فأصبح حجم المسيرة أكبر وأكبر. جاءوا كلهم مشياً على الأقدام وركوبا وساروا في الموكب. خفق قلب كل الذين كانوا جزءا منه. خفقت قلوبهم شوقا لرؤية شهاب بعد غياب أسبوع من الزمن. شهاب عاد .. عاد شهاب. دفع هذا بعض الصبية وبعض الشباب لاستباق المسيرة الجماعية، فراحوا يركضون نحو الموقع الذي هبط فيه شهاب. شارك أهالي القرى المجاورة في المسيرة تعبيرا عن فرحتهم بعودة شهاب، واليسيرة لها سطوتها المادية والمعنوية على القرى المجاورة، فكثير منهم عملوا فيها. عملوا في الكسارات وفي الزراعة والتجارة وفي المعسكر القريب المسمى باسمها، واليسيرة هي أكبر القرى في المحيط، حتى أن الكثيرين حين يريدون أن يعرفوا قراهم يعرفونها بمدى بعدها عن اليسيرة واتجاهها منها. لم يستطع هؤلاء التغيب عن مناسبة كتلك، فهي مناسبة للتآخي، ومناسبة لإزالة الأحقاد والحساسيات القديمة مع زعماء اليسيرة، وهي مناسبة لمشاركة الأسرة الواحدة كما يقولون، فإذا لم يشاركوا في هذه المناسبة، فأي مناسبة أخرى مشابهة ستحدث في اليسيرة! غاب شهاب أسبوعا. خطفه أهالي المدينة، والصراع لم ينته بعد بين المدينة والقرية، فما زال المدنيون يعتقدون أن أهالي القرى سذج، ولا يعرفون شيئا في هذه الحياة. كم هي النكات والفكاهات التي قيلت بين حين وآخر في المجالس والمضافات، قيلت ليتندر بها أهالي المدينة، وقيلت ليتندر بها أهالي القرى، وكم هي القصص التي حيكت عن أهالي القرى حين يبيعون خرافهم إلى أهالي المدينة ويشترونها لحما مقطعا. وكم هي القصص التي رويت عن أهالي القرى الذين يبيعون قمحهم، ويشترون بثمنه خبزا مدنيا أو كعكا بسمسم أو بغيره. وكم هي الحكايات التي رويت عن بيع أهالي القرى الجواعد، وشراء أحذية مصنعة من إطارات العربات على شكل

"شواريخ". لكن القصص التي كانت تنتشر كما غيرها من القصص، تلك التي استطاع واحد من أبناء القرى الإيقاع بأحد أبناء المدينة، أو ضربه. كانت لهجة أهالي المدينة محل تندر ومسخرة بين أبناء القرية، فكيف يسمون الشجرة "سجرة"! ويتندرون على تندر أهالي المدينة بلهجتهم، مثل كلمة "أخرى" بدل كمان. أزالت حادثة اختطاف شهاب الغبار عن صراع المدينة والقرى. هم كل واحد، ولا يوحدهم سوى انتماءاتهم الصغيرة هنا وهناك. لهذا ولغيره شارك أهالي القرى المجاورة بالحضور شخصياً، واصطحبوا معهم نساءهم وأطفالهم. إنه يوم ليس كمثله يوم، إنه أكبر من سوق الموالد، وأكبر من أسواق صلاح الدين، إنه سوق شهاب، فلقد عاد شهاب .. شهاب عاد، و"أبو عمي" يصرخ: "شهاب جاب القوشان".

كان الرعاة أول من رآه، وكان أول الذين لاقوه هم الحصادون. اعتلوا الأحصنة وتسابقوا نحوه، واعتلوا الحمير وهمزوها نحوه. حين وصلوه كان منهكا. شهاب كان تعبا، لكنه ظل مصرا على الاحتفاظ بابتسامته المرسومة على وجهه فكانت أشبه بمن تبرز أسنانه من شدة الألم. بدا عليه الإعياء، وبدا أنه لم ينم لليال طوال، فكانت عيناه حمراوين وحزينتين، وكانت شفتاه زرقاوين متدليتين كأن الدماء لم تصلهما منذ فترة، ولوحظت آثار كدمات على وجهه، أما يداه فكانتا مسورتين بآثار قيد، ورجلاه حافيتين متورمتين وبهما بقع حمراء وزرقاء. حين رأى الحصادين حاول أن يبتسم، كان جالسا على جنبه اليمين، يرتكز بساعده على أرض البيادر، لا يتحرك، ينظر بعينيه الذابلتين نحو القادمين نحوه، ويحاول الابتسام. كان بياض وجهه قد تحول إلى صفرة، واغبر شعره الأشقر وأصبح منكوشا، تشابك بعضه ببعض مثل شجرة النتش، ونحف جسمه الممتلئ كثيرا، وراحت نظافة جسده، كسته الأتربة والغبار، وفاحت منه رائحة روث الأبقار. كان منبطحا على الأرض، ولا يقوى على الحراك. اتسخت ملابسه، وتمزقت في أكثر من موقع. عاد شهاب شيئا آخر غير الذي عرفه أهالي اليسيرة. لم يعد شهاب ذلك الشاب المهندم والمنتصب، ولم يعد النظيف رافع الرأس دوما، ولولا بعض

العلامات التي يستطيعون تمييزه بها لما عرفوه. إنه اليوم أشبه بشحاذ وسط زحمة المدينة. إنه اليوم أشبه بعامل على طاحونة، أنهكه العمل، وهدته حرارة الشمس، فلم تعد به قوة. إنه اليوم أشبه بشخص قذفته أمواج البحر. لم يعد شهاب ذلك النجم المضيء، وخاطف الأبصار وهو يخترق السماء من فوق. لقد انطفأ رويدا رويدا. إنه هذا الذي رآه أهالي اليسيرة يوم الجمعة من حزيران.

اندفع الرعاة نحوه، وقبلوا وجنتيه، حضنوه وقربوه إليهم، فلم يجدوا استجابة منه لذلك الاشتياق. ظل منحنيا، ومنبطحا على الأرض كما كان قبل قدومهم، وحين تركوه، ارتمى أرضا، فإذا به ملقى على ظهره. صدم الرعاة مما رأوا، فصاحوا بأعلى صوتهم: "شهاب .. ما لك يا شهاب!"، واندفعوا نحوه بكل قوة. امسكوا به من تحت إبطيه، وحاولوا رفعه ليقف على رجليه، فإذا بشهاب يصرخ بأعلى صوته متأوها: "آخخخخخخ". سمع صوته من بعيد ومن قريب. رددت تأوهاته الجبال والأودية. فزع الناس مما سمعوا، فركضوا نحوه. أناخ الرعاة جسده على الأرض، وطالبوا الناس بعدم الاقتراب منه. ازداد الجمع حوله، كل منهم يسأل عن حالته وعن هذه الآخ العظيمة التي تشبه النفخ في الصور. سألوا الرعاة فلم يتلقوا جوابا، وسألوا الذين وصلوا قبلهم فلم يجدوا ردا. حالة شهاب لغز يرونه أمامهم. إنه اليوم بين أيديهم بعد غياب أسبوع من الزمن. هلعوا لاختطافه وأسره. حزنوا لفراقه. غنوا له. دعوا الله أن يرجعه إليهم، وها هو اليوم يعود، لكنه عاد بغير الحالة التي عرفوه فيها. شهاب اليوم لا يمشي منتصب القامة، ولا يقدر أن يقلب غرة شعره نحو اليمين ونحو اليسار، ولا يلبس أحلى الثياب. شهاب اليوم هو مجرد شخص أشبه بأي شيء غير شهاب. ولولت النساء والصبايا لهذه الحالة التي يرين. همزه العجائز كي ينتصب، لكنه لم يفعل. صرخ فيه الشباب يحثونه على استرداد قوته، فلم يستردها. نادى رجل "فظيعة" من بين النساء، وطلب منها أن تكشف عن حالته، فلقد قرأت الماضي والحاضر والمستقبل للكثير من أبناء القرية. قرأته في عيونهم وفناجين قهوتهم وأكفهم. اقتربت منه، ووضعت يدها على صدره. كان جسده ضامرا. لمست عظامه الناتئة، كان

باستطاعتها عدها واحدة بعد الأخرى. دهشت بما وجدت. سألته إن كان مريضا، فلم يجب. سألته عن الوقت الذي خرج فيه من السجن، فلم يجب. سألته عن غيابه، وعن المكان الذي كان ينام فيه، وعن الأكل الذي كان يتناوله، وعن سبب الكدمات على جسده. لم يحرك لسانه، ولم يجب قولا. عيناه كانتا معلقتين بعيني "فظيعة"، تودان أن تقولا شيئا لم تفهمه. تحركتا في أكثر من اتجاه حيث تتحرك هي. التفت إلى الناس برهة، ثم دقق في عينيها. أراد أن يقول شيئا. حثته أن يقول، لكن العينين ذبلتا، وانطبق الجفنان. حثته أن يفتحهما. فعل، وسالت دموع صغيرة، تجمعت وسقطت أرضا. عابه بعض الرجال الذين جاءوا للتو. التفت نحوهم حزينا، ثم تطلع إلى "فظيعة"، حثته على الكلام مرة أخرى، ولم يتكلم. كانت نظراته تتوسل إلى الناس أن يهدأوا. وضعت "فظيعة" يدها على رأسه، وقرأت: "قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد". وقرأت: "قل أعوذ برب الفلق" وقرأت، وقرأت. اقترب بعض كبار السن من "فظيعة" وسألوها عن حالته، قالت: "الله أعلم بما حدث، ما أحسن هداة البال". هدأت الأصوات القريبة. هدأت الأصوات الأبعد رويدا رويدا، وقرأ الناس معها: "والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر". وقرأوا حتى وصلوا إلى سورة البلد: "لا أقسم بهذا البلد". قرأوا خمسا وعشرين سورة من القرآن. هدأ الناس، وراح كبار السن يتضرعون إلى الله. مر الوقت وكبر الجمع، فعلت الأصوات وازداد الصخب. تدافع الناس نحو مركز الحلقة. ود كل منهم أن يراه، وهو ما زال ملقى على الأرض. جلست "فظيعة" إلى جانبه، والبشر يتدافعون ويتصايحون، والصبية ينسلون من بين أجساد كبار السن، ودموع تفر من العيون، وعويل هنا، وخطبة ودعوات وشتائم هناك.

كبرت الحلقة كثيرا، ولم يعد هناك مجال لأحد من القادمين الجدد لرؤية شهاب. كان الجمع كبيرا، وكان يحتل مساحة واسعة على البيادر الغربية، بين أكوام شمائل القمح والشعير والسمسم والعدس والكرسنة والبرسيم، وأكوام الحبوب وعليها. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف. ازداد الجمع. ضم أبناء

اليسيرة صغارا وكبارا، ذكورا وإناثا. ازداد الجمع وقد ضم أبناء القرى المجاورة ووجهاءها، وضم كل مارق طريق. تنادى وجهاء القرى المجاورة، وقفوا قريبين من بعضهم بعضا، وأشاروا بأيديهم لكل وجيه من اليسيرة كي يسلموا عليه، ويهنئوه بعودة شهاب، وأمروا مستخدميهم بذبح الخراف والماعز التي أحضروها معهم من قطعان حلالهم في الحقول القريبة. لاحظ "الحاج مسعود" وجهاء القرى من بعيد وقد اجتمعوا في ركن من البيادر، فجمع عباءته فوق كتفيه، ونادى مخاتير اليسيرة وراحوا يسلمون على الوفود القادمة. ركض "الواوي" وراءه وهو يحاول رفع العباءة كلما سحلت عن كتفي المختار. وقف بجانبه مستعدا لتنفيذ أي أمر منه، لكن المختار لم يعره انتباها. تجمع مخاتير اليسيرة معا لاستقبال الضيوف. حضنوا بعضهم بعضا، وشدوا على أيدي بعضهم بعضا أيضا. علا صوت "الحاج مسعود" وهو يستقبل الضيوف: "أهلا وسهلا"، "يا مرحبا"، "إن شاء الله نجيكم في الأفواح"، "شدة وزالت إن شاء الله". كان "الواوي" يقف بجانبه، يتطلع إلى وجهه، ويشير برأسه موافقا على كل ما يقول، ويتطلع إلى وجوه المجتمعين ويهز رأسه من فوق إلى تحت في محاولة لإظهار قيمة المختار بين وجهاء القرى الأخرى. كان الوجهاء يأتون ويعبرون عن تضامنهم مع أهالي اليسيرة بالعبارات اللائقة لمناسبة كهذه: "اللي فك أسر شهاب، يفك أسر غيره"، "ما صبر قوم إلا نالوا"، "غلة اليوم لعرس اليوم وأعراس الغد إن شاء الله".

رأى "الحاج مسعود" الرعاة وهم يذبحون الخراف والماعز احتفالا بعودة شهاب بأمر من وجيه من وجهاء القرى المجاورة، وبأمر من وجيه آخر، وآخر. وكان هذا الوجيه يلقي أوامره للراعي بإشارة مقصودة يلاحظها "الحاج مسعود"، فيرد قائلا: "بارك الله فيكم، أنتم في بيتنا يا جماعة". فيرد عليه: "هذا واجب يا حاج". أمر "الحاج مسعود" أبناء حمولته بذبح عشرة خراف، وعشرة رؤوس من الماعز. قال ذلك بصوت عال محاولا أن يسمعه وجهاء القرى المجاورة من جهة وأهالي اليسيرة من جهة أخرى، وقال بصوت عال: "الجميع يتناول الغداء هذا

اليوم في ساحة اليسيرة". وحالما أمر "الحاج مسعود" بذبح الخراف والماعز، ركض "الواوي" نحو الرعاة لمساعدتهم، لكنهم زجروه، فعاد ليقف ثانية خلف المختار. اقترب "أبو عمي" من هذا الجمع المخاتيري، وهو يميل برأسه ذي الشعر المنكوش نحو كتفه اليمنى، ويحني جسده النحيل إلى الأمام. تطلع إلى "الحاج مسعود"، وتطلع إلى وجوه الوجهاء واحدا واحدا، وسمع ما قالوه، وتطلع نحو الحلقة حول شهاب. اقترب من زوجته "قظيعة" وهي تدور بين النساء، سألها عن خبر شهاب، وإن كان قد أحضر القوشان، فهمست في أذنه. خرج عن صمته مكلما نفسه: "يعني ما جابش القوشان! وإذا كان هذا صار مع شهاب خلال غيابه، ليش كل هذا الجمع، وليش كل هذه الذبائح، والله فظيحة وعليها شهود، ربما من الأفضل ذبحه بدل ذبح هذه الأغنام".

مرت دورية من الجيش الإنجليزي من الطريق العام، ورأت هذه الجموع. توقفت برهة لاستطلاع الخبر، وخابر أحد أفرادها مركز قيادتهم، فإذا بجيش كثير يأتي. جاءوا بعرباتهم العسكرية، وجاءوا معتلين أحصنتهم، وجاءوا مشاة من المركز القريب من اليسيرة. احتلوا مواقع حول الجمع، ونزل قائد من عربته، ووقف في مكان يمكن ملاحظته. تهامس الحضور حول تجمع الجيش هذا، وقالوا: "منذ اليوم الذي عفوا فيه عن "الظبع" وهم يشددون الرقابة علينا، إلى متى نظل نرقص ونغني تحت مسمع وشوف الإنجليز! لو ظل "الظبع" مشردا لما تجرأوا على الوقوف قرب اليسيرة". فما كان من "الحاج مسعود"، إلا وتوجه نحو القائد، لحق به بعض مخاتير القرى المجاورة، ولحقه "الواوي"، فقال له المختار: "يا أخي خليك بعيد، وعندما أطلبك تعال". أجاب "الواوي" بخشوع: "أنا أعرف اللغة الإنجليزية، يمكن تحتاجني أترجم بينك وبينهم". أجابه المختار بانفعال: "هم يعرفون لغتنا وهذا يكفي، ابعد عني". فابتعد عنه قليلا، وظل يرقب ما يجري من حديث. اقتربوا من القائد، فسألهم عما يجري. أخبروه بعودة شهاب السعيدة، وأخبروه بالمصيبة التي حلت باليسيرة منذ أسبوع، شكوا من تعامل أهالي المدينة معهم. وعد القائد بمتابعة القضية، وطلب أن يخبروه بأية أخبار جديدة، ووكلهم

بمسؤولية أي خلل يتم في هذا الجمع. استجابوا لما طلب، وعرضوا عليه أن يتناول هو وكتيبته الغداء معهم بعد الصلاة. اعتذر، ووعد أن يزور القرية في وقت قريب. قام قائد الكتيبة بمخابرة. لا يعرف الكثيرون ما قاله، لكن يستشف من انطباعات الحاضرين أن الموضوع كان شهاب وأم شهاب. ظل الحاضرون ينتظرون ما يقوله القائد بعد هذه المخابرة المشكوك في أمرها، تململوا من بقائهم هذه المدة الطويلة على بوابة اليسيرة الغربية، تلك البوابة المطلة على المدينة. تنهد القائد عدة مرات، ويبدو أنه أعطى أوامر للعسكر للانتشار حول الموقع. فكر القائد للحظات وهو يدير ظهره للمختار، ثم توجه إليه قائلا: "أريد أن أرى شهاب وأمه". قال المختار: "وكيف تراه في مثل هذا الوضع؟" قال: "أريد أن اطمئن عليه، وإذا احتاج الأمر سننقله إلى المشفى لمعالجته". فكر المختار قليلا ثم قال: "لا يبدو أن حالته خطيرة، خلي الناس يفرحوا مثل ما بدهم هذه الليلة على الأقل، وسأتصل بكم غدا". أمسك القائد بجهازه، وأخبره بشيء كان على الأغلب رأي المختار، وبعد أخذ ورد، انتهت المخابرة الثانية، وقال: "سنظل على اتصال". ثم غادر الموقع.

وصلت النسوة وهن يزففن "شرحة"، يغنين لها ولعودة شهاب ويرقصن، وتغني معهن، وترقص أمامهن. كانت "شرحة" تتقدم النسوة نحو مركز الجمع. أشار "الحاج مسعود" أن يتوقفن حيث هن. لم تقبل "شرحة" إشارة المختار، واستمرت في التوجه نحو شهاب، وهي تزغرد:

الأسد غاب في نص الليالي
الأسد غاب ما بين الجبال
شهاب عاد لأهله وناسه
شهاب نار على روس التلال

اقتربت "شرحة" من وسط الجمع. لاقتها "فظيعة". ضمتها وقبلتها، لكن "شرحة" ظلت ترقص وهي تلبس الثوب الأبيض. همست في أذنها أن تهدأ قليلا.

أخبرتها أن شهاب مريض، وهو في غير الحال الذي تعرفه، وأوصتها أن تظل فرحة بقدومه، ليس من أجلها فقط، وإنما أمام أهالي اليسيرة، وأمام أهالي القرى المجاورة الذين جاءوا لاستقباله. شاهدت "شرحة" شهاب وهو ملقى على ظهره. التفت نحوها، وسقطت دمعة من عينه. اندفعت نحوه، وقبلته. قبلت جسدا هامدا غير قادر على الحركة، وقالت في نفسها: "إذا كانت قصته هي قصة المواخير، فالديك يدور في الحارات، يلاقي دجاجات الحارة، ثم يعود إلى خمه". اقتربت منيه وسألته: "هل أحضرت القوشان؟" فلم يجب، وبحلق في عينيها وكأنه اكتشف الغرض الذي ذهب من أجله إلى المدينة. أغمض عينيه الناعستين، وشاهدت دموعه تنز من بين جفونه، ففهمت أنه لم يحصل عليه. رفعت يديها إلى السماء، وأمسكت ثوبها، وقبل أن تصرخ أو تقد الثوب، أغلقت بعض النسوة فمها، أمسكن يديها، وسحبنها حيث تجمعن. واست بعض النساء "شرحة" بسبب حالته، ووشوشنها أنه إذا لم يحصل على القوشان اليوم فسيحصل عليه لاحقا، ورقصن وغنين أمامها، مبينات أهمية عودة شهاب:

الحمد لله ويا الله
شهاب يا ما شاء الله
الحمد لله ويا رب
شهاب في حفظ الرب

تداركت "شرحة" الموقف، تمالكت نفسها، وغنت معهن، ثم رقصت، وظلت تغني وترقص.

وصلت فرقة الكشافة بقيادة "الظبع". لم يكن حولها أي من أبناء اليسيرة أو غيرها، فكلهم سبقوها. تركوا الطبول والصولجانات والمزامير ولحقوا بمن سبقهم لاستقبال شهاب ورؤيته والسلام عليه. وصلت الفرقة وهي تعزف لحنها الفرح. كانت الفرقة قد انتظمت صفوفها، وساروا كما العسكر، يتقدمهم "الظبع"

وهو يحمل عصا يلوح بها في السماء، يدور بها يمينا وشمالا وفي كل اتجاه. كان يرقص بها، وهو حافي القدمين كما كان دوما، لا يهمه شوك ولا تهمه حجارة، ويسير رافعا رأسه ورافعا عصاه، والناس ما زالوا يذكرون قصة "الظبع" مع العربيد الذي جره إلى اليسيرة برجله دون أن يدري، وبسبب قسوة لحم كعب رجله لم يحس أن عربيدا قد عضه، وعلقت أنيابه في اللحم الميت، ولم يستطع فك نفسه، فجره "الظبع" إلى اليسيرة، وأوقفه رجل وسأله: "ما هذا؟ انتبه لنفسك، كيف ربطته برجلك؟". عندها تنبه إلى أن هناك عربيدا بالفعل قد ربط نفسه هناك. أمسك به "الظبع" وشده، وألقاه ليلاحقه الصبية ويقتلوه.

التفتت الجموع نحو الفرقة القادمة، فمنهم من سعد بما رأى، ومنهم من تمنى أن يصمت هذا اللحن أو يخفت إكراما لشهاب والوضع الذي هو فيه. ظل "الحاج مسعود" واقفا بين وجهاء القرى الأخرى، وهو رافع الرأس، مصطنعا ابتسامة تليق بهذه المناسبة. اختبأ "الواوي" وراءه، يتلصص على الفرقة من بين كتفيه ورأسه، و"الظبع" يتقدم. انتشى "الظبع"، وراح يؤدي حركات لفتت أنظار الكثيرين. طير عصاه غير مرة في الهواء والتقطها ثانية. كانت العصا تدور في الهواء، فترقص وحدها، وتسقط في يد صاحبها. كانت ترتفع أكثر وأكثر ليتمكن كل الذين على البيادر من رؤيتها. كان يرسل العصا نحو الغرب حيث تقف الجموع، تطوف فوقهم في مسار شبه بيضاوي، وتعود حيث ينتظرها. عجبت الجموع بما رأوا، وعجب الجنود الإنجليز وهم خبراء بالكشافة وبفنونها بما رأوا، و"الظبع" ينتشي أكثر وأكثر، ويؤدي حركات أكثر تعقيدا، فهذه فرصة لاستعراض فنون مهاراته بالعصا أمام الناس وأمام الإنجليز الذين ربما التقى بهم في الجبال حين كان مشردا. ارتفعت أعناق الجموع نحو السماء في الجهة الشرقية منهم، في الجهة التي أتي منها "الظبع"، في الجهة التي أشرقت منها الشمس هذا الصباح وكل صباح. عجبوا بما شاهدوه، فراحوا يصفقون ويطلقون صيحات الإعجاب والتشجيع. عمل أعضاء الفرقة كما فعل رئيسهم. راحوا يلقون عصيهم في الهواء، ويدقون من جديد، فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ، لكن المحاولات استمرت،

وفي كل مرة يتقنون اللعبة أفضل من المرة التي سبقتها. وقف طابور الفرقة في موقع يراه كل الناس، وأبقى الأعضاء على حالة العزف مدة من الزمن. صفق الصبية لما رأوا، وزغردت النساء في أكثر من موقع، وتفوه الرجال بأكثر من عبارة تشيد بالفرقة وبقائدها. رقص العديد من الشباب على هذا اللحن، وفعل مثلهم بعض الرجال، ورقصت نساءٌ وصبايا أيضا. غنين وهن يصحجن بأيديهن:

الحمد لله اللي زال الشر الحمد لله
زرعنا الفلفل في الحر الحمد لله
الحمد لله فرعن واحمر الحمد لله
زرعنا الفلفل على التل الحمد لله
الحمد لله كبر وغل الحمد لله
زرعنا الفلفل في الواد الحمد لله
الحمد لله نبز وجاد الحمد لله

غنين أغاني أخرى تظهر فرحة أهالي القرية بعودة شهاب، وتظهر الترحيب بالضيوف الذين جاءوا إلى اليسيرة، وتظهر قوة أهاليها التي أجبرت أهالي المدينة على الإفراج عن شهاب وإن كان بعد حوالي أسبوع من أسره. غنين لجمال شهاب، وغنين لجمال فتيات اليسيرة. سمعت "شرحة" الغناء فانضمت إليهن، وراحت هي الأخرى تغني معهن، وتبدع، وترقص. أزالت غطاء رأسها، ورقصت أمام النساء، ورقصت أمام كل تجمع في البيادر. رقصت أمام وجهاء القرية، وأمام وجهاء القرى المجاورة وهي تقول "الحمد لله اللي زال الشر الحمد لله"، ورقصت أمام شبابها وعجائزها، وحين اقترب "الظبع" بفرقته، اندفعت نحوه راقصة. رقصت أمامه وأمام الفرقة، ورقصت معه. جذبت انتباه الناس وهي ترقص، والناس فرحون لفرحتها.

توقفت الفرقة عن العزف، تفرق أعضاؤها، ذهب "الظبع" ناحية الوجهاء. سلم عليهم، وأثنوا على عزف فرقته. ابتعد "الواوي" في الجهة القريبة من كتيبة الجيش، تطلع إليه "الظبع". أدار "الواوي" وجهه، وجلس على الأرض. وقف "الظبع" مع الوجهاء قليلا، تبادل معهم كلمات الترحيب والثناء. لاحظ أن الناس تلتف حول شهاب في هذا الجو الحار، فالشمس تلقي أشعتها في كل جانب، والناس تتدافع نحو مركز الحلقة. كل الذين يدخلون الحلقة لا يودون الخروج منها أو حتى يستطيعونه. لاحظ أن هناك مشكلة في تجمع الناس حول شهاب بهذا الشكل، وما كل هذا الحفل إلا من أجل شهاب. اقتحم حلقات الجمع، حلقة وراء أخرى، وهو يصرخ فيهم أن يبتعدوا. صرخ بأعلى صوته. أمسك بعصاه جيدا، وهدد الناس جميعا، لكنهم كانوا مصرين على البقاء هناك. اقتحم "الظبع" الحلقات بكل ما لديه من قوة، فأصبح قريبا من شهاب. لاحظ شهاب قدوم "الظبع"، ورأى "الظبع" هذا الوجه الذي تغيرت ملامحه. صعق لما رأى. لم يتوقع هذه الحالة، ولم يجد طريقة للسلام عليه. شعر بأن شهاب يكاد يختنق. أزاح بيديه الناس من حوله ليخلق فضاء وليتنفس، وصاح فيهم أن يبتعدوا عنه قليلا، لكن الناس لم يفعلوا. تدافع الجمع، فالكل يريد أن يراه، وشهاب يتكئ بكوعه هذه المرة على الأرض. وقف الناس على أطراف أقدامهم، وارتكزوا على أكتاف الذين أمامهم، ومالوا برؤوسهم يمينا وشمالا، ودسوا رؤوسهم بين المحيطين بهم، و"الظبع" يصيح بالجمع أن يبتعدوا. حمل الرجال والنساء أطفالهم فوق أكتافهم وفوق رؤوسهم وهم يقولون لهم: "هذا هو شهاب". اعتلى بعض الرجال التلال المحيطة، أو صنعوا رجما من الحجارة يقفون فوقه، وتسلق الشباب الأشجار المحيطة، لكن القليل منهم استطاع رؤية بعض جسده، ومن رآه طلب من المجاورين له أن يصمت، فشهاب كان يتلوى.

كثرت التشابيه المستخدمة في حالته هذه، فمنهم من قال أنه يشبه حاجا عاد لتوه من بلاد الحجاز، غاب أشهرا متنقلا من واسطة نقل إلى أخرى، حاجا أعيته طقوس الحج، وطريق السفر، فعاد منهكا لا يبغي إلا مرضاة الله والعيش بين أهله من جديد، فقل تفوهه بالكلام، فكلما كثر الكلام كثرت الأخطاء، وأصبحت

الأفعال وحدها هي المقياس. حاج تحمل مشاق سفر آلاف الكيلومترات، زار قبر النبي عليه السلام، وصلى في نفس الأماكن التي صلى فيها، ورأى مواقع القتال التي حارب فيها الكفار، فرجع خاشعا متضرعا إلى الله وحده، متأملا في الأفعال التي قام بها، آملا أن يتجنب ما يغضب الله، وأن يتبع ما يرضيه ويفرحه. ومنهم من قال أن شهاب يشبه مقاتلا عاد لتوه من ساحة الحرب بعد هزيمة جيشه، حمل بندقية ودار من جبل إلى جبل، ومن واد إلى واد، وخبأ السلاح في المغائر، وتجول في الليل هو والضباع وبنات آوى، ولم يجد من يأويه. هرب من جيوش الإنجليز نهارا، وواجهها ليلا، تسلل إلى مواقع المستوطنين، وكلمهم كأنه منهم، ثم انقض على تكناتهم، وقتل وجرح وهرب، وبينما هو في موقعه ظانا أنه انتصر، فاجأهم العدو من كل جانب، فنهش رفاقه واحدا واحدا ومزقهم إربا، فانهارت نفسه، وعاد إلى قريته لا يبغي سوى العيش حتى كذليل لا يقوى على شيء. ومنهم من قال أنه يشبه زير نساء، لا تشبعه واحدة، فدار من مبغى إلى آخر، جرب هذه وجرب تلك، وانساب على أجسادهن فلم يشبع، فانطلق نحو الثالثة والرابعة والعاشرة في نفس الليلة، فانهارت قواه، فرغ مخزونه، وأنهكت أعصابه، وتعبت عضلاته، فعاد كما نرى، لا شرب الخمر نفعه، ولا أكل اللحم مده بالقوة. ومنهم من قال أنه يشبه إنسانا ضاع في الصحراء بلا زاد ولا ماء، زحف على ركبتيه ومرفقيه باحثا عن الحياة، فإذا به صدفة في أرض اليسيرة.

كانت جموع الحيوانات قد وصلت هي الأخرى تباعا. وجدت أكواما من القمح والشعير والكرسنة والعدس وغيرها في البيادر، ورغم حرارة الشمس إلا أنها بدأت بممارسة طقوسها، فأكلت من هذه الكومة، وانتقلت إلى الثانية، ثم إلى الثالثة وهكذا. كانت تقضم شيئا من هنا، وتتسابق لتقضم شيئا من هناك، وكأنها كانت حريصة على أن تنوع في أكلها من كل صنف مرة واحدة. تناثرت الأكوام، وتحولت إلى ما يشبه التلال. لم تكن الحيوانات هي السبب الوحيد في ذلك، فالصبية أيضا قفزوا من هذه الكومة إلى تلك، مرة من أجل اللهو، ومرة من أجل أن يروا شهاب. لم يجرؤ أصحاب الغلة على طرد الحيوانات ولا الصبية في هذا

الموقف الجديد على اليسيرة وأهاليها. وقفوا متفرجين رغم المرارة التي أحسوا بها كلما اقترب حيوان أو إنسان من كومة غلتهم. حين كبر الجمع، واحتل الناس معظم المكان، لم تجد الحيوانات لها مكانا على البيادر رغم اتساعها، فوجدت نفسها في الخارج، وجدت نفسها على أطراف البيادر، وأبعد من ذلك بكثير. اشتدت حرارة الشمس، وبحثت الحيوانات عن ظلال الأشجار المحيطة. فعلت هناك كما يفعل الصبية بعد نيل وجبة دسمة من الغذاء، وسمعت أصواتها من بعيد ومن قريب وهي تنهق، وتصهل، وتصيح، وتنبح، وتخور. إنها قطعة موسيقية عزفتها الحيوانات حول البيادر وحول الذين تجمعوا وما زالوا يتجمعون لاستقبال شهاب من داخل القرية ومن خارجها. لم تكتف الحيوانات بذلك، فراح كل قطيع يتجمع في منطقة، وعلا صياح الديكة وهي تدافع عن دجاجاتها، ومقاقاة الدجاجلت وهي تدافع عن صيصانها، والكلاب وهي تتدافع نحو إناثها، والحمير وهي تتزاحم حول أتانها، وهكذا فعلت الحيوانات الأخرى. أصوات الغناء من هنا، وأصوات الحيوانات من حولها، وشهاب ما زال يشكل مركزا لكل هذا الحفل. مرت لحظات صمت كان "الظبع" يحاول أن يبعد الناس من حول شهاب. صمت البشر، وصمتت الحيوانات معا. كانت لحظة صمت رهيب مليئة بالخوف والرعب والخشية. لم يجرؤ الشيخ "عبد النبي" على التكبير والتهليل، ولم يدر أي من الحاضرين ما هو المصير، فاللحظة أشبه بلحظة انتظار الحساب، لحظة تفكير لدى الكثيرين ممن حضروا، لكن أصوات الحيوانات أعلنت انتهاءها. كانت أفعى سقيفة المختار قد برزت من بين الأشجار. وقفت على ذيلها، فرآها أكثر من واحد وهي واقفة أطول من رجل، ورأوا رأسها الكبير، وعينيها الكبيرتين، ولسانها الخارج من فمها تلوح به إلى اليمين وإلى اليسار. وقفت على ذيلها، وكأنها مثل الكثيرين تحاول أن ترى شهاب العائد. وقفت هناك لحظة، ثم انبطحت على الأرض عائدة إلى جحرها. كانت هذه هي المرة الوحيدة التي يراها الناس خارج السقيفة. لقد جاءت في موكب عظيم هي الأخرى، شاركت في الحفل، ثم عادت بنفس الموكب. صمت الناس لأجلها، ولأجل شهاب، ولأجل شيء لا يعرفونه.

(٢)

"ليس كمثله شخص في اليسيرة وما جاورها من مدن وقرى".

قال ذلك أهالي اليسيرة، وقالوه محبوه ومبغضوه على السواء. كان عندما يمر من طريق، تبدو هالة من الضوء حوله، تراه في وضح النهار رغم أشعة الشمس المنتشرة، وتراه في الليل حين تكون الشمس قد اختفت وراء البحر. تراه في الليالي المقمرة وفي الليالي المنجمة، وتراه أيضا في الليالي المعتمة حين لا يكون هناك نجم ولا قمر ولا شيء من ذلك كله. كان يمر مسرعا، والسرعة النسبية لأهالي اليسيرة ليست متوسط المسافة التي قطعها بالنسبة للزمن، وإنما هي صغر الزمن نسبيا إلى الوقت الذي يودون أن يروه فيه. كان الصبية يركضون من حوله حين يمر، يركضون أمامه، ويركضون خلفه، فهو مثل ملكة النحل حين تطير في الهواء مستطلعة البيئة المحيطة بخليتها قبيل رحلتها الوحيدة في اجتذاب ذكور يلحقونها. إنه مثل ملكة النحل وهي تستطلع طريق رحلتها بينما تحيط بها حارساتها من بناتها. لم يكن هدف الصبية المحيطين به حراسته، إنما الهدف هو التفرج على هذه الشخصية الغريبة، تلك الشخصية التي طالما تمنى كل طفل أن يكون مثلها في يوم من الأيام. شهاب ليس كمثله شخص، ومن أين عرف الصبية ذلك؟ عرفوه من الحكايات العديدة التي قيلت حوله في مجالس النساء ومجالس الرجال، وعرفوه مما سمعوه من الشباب الأكبر منهم سنا، وعرفوه مما سمعوه من أخواتهم وبنات جيرانهم، وعرفوه مما سمعوه من أولاد حاراتهم، وعرفوه مما سمعوه من أهالي القرى المجاورة الذين كانوا يزورون اليسيرة. عرفوا كل ذلك وأكثر مما رأوا حين كان يمر شهاب من الطريق، فيخطف أبصار الجالسين والماشين. عرفوه من تلك المشية التي انفرد بها وهو يسير في أزقة القرية وعلى سفوح جبالها وفي أوديتها.

كان شهاب مكشوف الأفعال ومعروفة خطوات سيره، لا يفعل شيئا في السر، بل إن أسراره لا تلبث أن تتكشف بسرعة، ويتم نشرها بين العارفين بالأمور لتتسع دائرتهم وتشمل كل فرد من أفراد اليسيرة. هو الشيء الوحيد الذي يحبه أهالي اليسيرة إذا ما ذكر اسمه أمام أهالي القرى الأخرى. يحبونه لطول قامته وجمال وجهه، واستقامة قوامه، ورقة مشاعره، وإثارته صبايا القرية ونسائها، ورغبة الشباب في التشبه به، وأحلام شيوخ القرية في رجوع شبابهم إليهم. وهو من جهة ثانية الشيء الوحيد الذي يكرهه أهالي اليسيرة، فالكثير من الصبايا تمنينه دون أن ينلنه، والكثير من الشباب تمنوا أن يكونوا محط اهتمام مثله ولم يفلحوا. تمنت النساء لو كان أزواجهن بهم بعض من جماله. تمنى الرجال أن تلد نساؤهم أولادا فيهم مثل حلاوته ولم يلدن، فكان جواب النساء على هذه الأقوال ب "اللي بيحطه الرجال بتجيبه الغزال"، و "اللي بيحطه الزفت، بتجيبه البنت"، و "اللي بيرمي حجر في البير بيسمع صوته". أحبه جميع أهالي اليسيرة لأنه الوحيد من أهالي القرية الذي يتمتع بهذه الصفات، فهو رقيق مقابل خشونة أهلها، و"طويل الروح" مقابل "روحهم في رأس مناخيرهم"، والناعم مقابل "دفاشتهم"، وقليل الكلام مقابل ثرثرتهم، والهادئ مقابل إزعاجهم، والجميل مقابل عاديتهم، وطويل القامة مقابل متوسطها وقصيرها، وممشوق القوام مقابل "ملفوفها"، والأشقر مقابل سمرتهم، والمسالم مقابل عدوانيتهم، وأملس الشعر مقابل "فلفلته" عندهم، وهو جاذب الصغير والكبير من أهالي اليسيرة وغيرها مقابل نفرتهم. إنه شهاب الذي ليس كمثله شخص.

أثار جمال شهاب أهالي القرية، وأعجبوا به أشد إعجاب، وقالوا عنه الكثير. تمنت نساء القرية أن يلدن مثله، فرحن يترددن على بيت أبيه، ويتوحمن عليه. حصل ذلك قبل حملهن وأثناءه وبعده، ولم يكن غريبا أن ترى شهاب الطفل تحمله نساء القرية وهن يدرن به في أزقة القرية وطرقاتها، يلتف الأولاد حوله، وتلتف البنات حوله، يحاولون التكلم معه، أو إثارته، أو إضحاكه، أو جعله يبتسم على الأقل. كان يتطلع إلى كل واحد منهم ومنهن، وجهه يضيء وعيناه تلمعان،

ونور يشع من حوله، فإذا ابتسم في وجه أحدهم رجع إلى بيته راضيا مرضيا، وكثيرا ما فعل ذلك. أما إذا أشاح بوجهه عن مضحكه، فإن كمدا يصيبه، فيروح من فوره إلى كثة اليسيرة، يأخذ زيتا من جرة في بيته، ويوقده، ويدعو ستنا اليسيرة أن ترضى عنه، وأن يرضى عنه شهاب. كان الدعاء المتعارف عليه ينص "يا ستنا اليسيرة، يا من جعلت من العسر يسرا، ارضي عني أولا، وسأكون في طاعتك وفي طاعة أهالي القرية التي سميت باسمك، دعي شهاب يرضى عنا، فإن رضاه من رضاك". يوقد الزيت، وينفخ على دخانه عله يصيب كل زاوية من زوايا اليسيرة، وكل ورقة من أشجار بلوطه. فإذا اشتمت اليسيرة رائحة الزيت نزلت من الأعالي، ونظرت في وجه الداعي، وسألت نفسها إن كانت قد رأته من قبل يرتاد مكانها، ويقدم القربان في حضرتها، تتفحص الوجوه والأنفس، تتفحص ما ظهر من أمر الداعي وما بطن، فإن وجدته من روادها، وممن صدقت نواياه، نظرت في أمر الداعي، واستجابت له. وإن وجدته ممن ساءت نواياه، وجاء للمرة الأولى، رفضت طلبه فلا تستجيب له. إذا وجدت أن الذي يزروها من أهل الخير، هبت الرياح، وتلاطمت أوراق الأشجار، فيعود الزائر قاصدا بيت شهاب، ليجده يتطلع نحوه ويبتسم، ويرجع إلى بيته مطمئن البال. أما إذا حدث العكس، فإنه يعود إلى بيته حزينا، أو يذهب لنبع الماء، يستحم هناك، ثم يذهب إلى اليسيرة يطلب المغفرة ثانية من اليسيرة ومن شهاب. يقول أهالي اليسيرة أن هناك طقوسا أخرى كانوا يقومون بها في هذه الحالة، يذهب الشخص إلى اليسيرة وينام هناك ثلاث ليال متتالية تحت شجر البلوط أكان الفصل صيفا أم شتاء، وهم يؤكدون أن الظروف الجوية في القرية لا تؤثر في تلك التي تحت كثة اليسيرة، إذ يكون الجو بعكس ما هو خارجها، فهو بارد لطيف صيفا، ودافئ لطيف شتاء. في هذه الحالة يقضي الشخص أيامه الثلاثة طاهرا يصلي لله تعالى، ويوقد سراج الزيت، ويدور به حول الكثة في الصباح، وفي الظهر وعند غروب الشمس، ويؤدي صلوات اليسيرة. يدعوها أن ترضى عنه وأن تلبي طلبه، وأن يرضى عنه شهاب، وأن يرزقه ربنا مثله، مليح الوجه، بشوشه، محبوبا بين أهله وجيرانه وأبناء اليسيرة

جميعا، ويقضي الشخص وقتا يتأمل في نفسه، وفي أفعاله، ما حسن منها وما ساء، ويعد الله واليسيرة أن يبتعد عن كل ما هو مسيء، ويقترب من كل ما هو محسن. يكرر هذه الطقوس في الأيام الثلاثة، ويعتبر أن هبوب نسيم الهواء، وتلاطم أوراق الأشجار هي من علامات رضى اليسيرة عنه.

لم تخش أم شهاب يوما أن يصاب ابنها بأذى من الضباع أو الأفاعي وهو تحت أشجار كثة اليسيرة، فاليسيرة تكثر فيها الأفاعي، بل هي تعيش هناك، ولم يحدث أن لدغت أحدا تحت أشجارها، وشهاب عاش معها، وعبث بجحورها، والتقط أثوابها القديمة، فركها بين يديه ودهن بها وجهه وجسده. كانت فراخ الأفاعي تراقصه وتداعبه، وكان هو الآخر يراقصها ويداعبها. حين كبر، شاهد العديد من أهالي اليسيرة شهاب وهو يلف أفعى حول عنقه، حتى أن أفعى كبيرة كانت تعيش في سقيفة "الحاج مسعود"، لم يستطع أحد الاقتراب من جحرها إلا شهاب وأمه. كانت السقيفة نفسها تستعمل لخزن التبن، والأفعى تعيش في مكان ما من السقيفة لم يستطع أحد تحديده. كانت أم شهاب تدخلها، تحمل التبن وتخرج، ولم تؤذها، وكان شهاب هو الآخر يساعد أمه ولم تؤذه، ولم يشعرا بأن هناك ما يعكر صفو حياتهما. أما إذا اقترب غريب من السقيفة، فإنها تظهر بشكل مفزع جدا. قال "الواوي" أنها كانت طويلة جدا، يظهر هذا الطول حين تقف على ذيلها، كأنها تحذره، كانت بطول رجل أو امرأة، بل كانت أطول من ذلك، كانت بطول شهاب وهو شاب يافع، أما رأسها فكان كبيرا جدا، كان بحجم قبضتين من قبضلت "الظبع". حتى "الظبع" نفسه الذي كان لا يخشى شيئا لم يقترب من سقيفتها، ولم يحاول ذلك. لم يحدث أن هاجمت الأفعى أحدا خارج حدودها، إنها منطقة الأفعى ومنطقة شهاب وأم شهاب، عاشا معها، وعاشت معهما دون أن تكلفهما شيئا، وتعايش أهالي اليسيرة معها أيضا. يقال أن سبب عض العربيد ل"الظبع" هو نومه تحت كثة اليسيرة دون أن يكون طاهرا، فلاحقه خارج الكثة بعد أن صحا وذهب، ولم يفعل ذلك وهو نائم في حماية اليسيرة وبركتها. لم تخش أم شهاب أن يصاب ابنها بأذى من الضباع، فالضباع كانت تدور حول اليسيرة، ولم تدخلها، ولم تنم

تحت وارف ظلها، إنها منطقة الأفاعي فقط، وهي لا تظهر كثيرا في النهار، إنها تدور في الجبال وحول القرية ليلا، وحين يكون الشخص تحت اليسيرة فلا خوف عليه من الضباع أو من غيرها. إنها محمية، لا يصاب الإنسان بضرر وهو في حضرتها، إنها اليسيرة التي يطلب الناس منها المغفرة، والحبل، وإزالة الضرر.

عجب أهالي اليسيرة من جمال شهاب، فبشرة أهالي اليسيرة سمراء، فمن أين جاء هذا الجمال، وهذا الشقار بالذات! قيل الكثير في جماله، قيل الكثير في المجالس الخاصة وفي المجالس العامة. قال بعضهم أن أجدادا له كانوا بنفس لونه وبمثل جماله، وقال أكثرهم أن جنديا إنجليزيا أشقر اللون قد اختلى بأمه تحت أشجار اليسيرة بالذات، وفعل فعلته، فجاء شهاب بهذا الجمال، وبلون البشرة التي نرى. ويروون قصصا من الصعب تصديقها، فأمه سمراء نحيلة، لم يكس عظمها سوى جلدها، حتى لقبها أهالي اليسيرة "المقرقدة" بسبب كون جسدها مثل فرع شجر جاف. هذه "المقرقدة" كانت في الوقت نفسه مغناجة، ولم تتورع عن محادثة أي رجل أو شاب رأته. لم تعرف أم شهاب أن تحتفظ بلسانها داخل فمها، فهي تتحدث حتى مع الجنود الإنجليز مبررة ذلك بمحاولة إقناعهم أن "يتركونا في حالنا"، ويذهبوا لمقارعة اليهود، وهكذا وجد الإنجليز من يتحدثون معهم من نساء اليسيرة. في يوم من الأيام، التقى بها الجنود قرب اليسيرة، فتناوبوها واحدا واحدا، وهي تتأوه لكل واحد منهم، حتى أن الأفاعي خرجت من جحورها، وولت هاربة من الأصوات، ولم تعد إلا بعد ذهابها. أما الآخرون فيقولون أن الأفاعي فعلت فعلتها هي الأخرى في الوقت نفسه، إذ سمعوا أم شهاب وهي تتحدث يوما عن الأفاعي وما تفعله، وكأنها شهدت ذلك بأم عينها. أكد العديد من أهالي اليسيرة أن "المقرقدة" كانت تتردد كثيرا على كثة اليسيرة، ويقال أن الجنود الإنجليز كانوا يترددون هناك كثيرا هم الآخرون، ومنعت هذه الزيارات المشبوهة لأم شهاب ولتواجد الجنود الكثيرين أهالي اليسيرة من الذهاب هناك لاعتقادهم أن بركة اليسيرة قد قلت، وكانوا بانتظار أن تقوم ستنا اليسيرة بالانتقام منهم في يوم ما.

*****

كان لشهاب فلسفته الخاصة. يقال إنه اكتسبها من معلم كان يرتاد مجلسه في المدينة بعد انتهاء فترة الدوام المدرسي، فهو لم يتلق تعليمه في مدرسة القرية كما زملاؤه الآخرون من أبناء القرية، بل أرسله أبوه لاكتساب العلم على يد هذا المعلم الذي اعتبره كثيرون فيلسوفا، كان يتكلم في الحياة وفي المجتمع وفي الموت وفي الأدب، بل كان يكتب شعرا وينشده على مريديه، ويناقشهم فيما جاء فيه. ربما بسبب ذلك كان لشهاب فلسفته الخاصة، إذ أيقن أن الحياة تأتي دون إنذار، وتولي بنفس السرعة، وهو لا ينكر شيئا من ميوله الطبيعية، ولا يكبح أيا من رغباته الجسدية. لم يحس قط بالرغبة في الشهرة. كان يهيم في الحياة متمتعا بما فيها من مباهج، فالحياة بالنسبة له تختلف عن حياة غيره، ولكن عند الموت فإن الحياة بالنسبة للجميع سواء، فكلهم يصبحون نتنين، وعفنين، فالناس يتساوون عند ميلادهم وعند وفاتهم، والحياة متساوية في حكمتها، ومتساوية في حماقتها، ومتساوية في نبلها، ومتساوية في حطتها. الحكيم يموت والغبي يموت، والخير يموت والشرير يموت، والكريم يموت والبخيل يموت، وعلى ذلك كان يقول: "إذا كانت هذه هي الحياة فلماذا لا نحياها كما يجب؟!".

اعتقد شهاب أن هناك تجويفين قد خلقا لونا خاصا لسير التاريخ الإنساني، وهذان التجويفان يجب إشباعهما لينعم الإنسان بعدها بالسعادة الكاملة. إنهما يتعلقان برغبتين هما الغذاء والجنس. هما غاية الإنسان وهما وسيلته في الحياة الفعلية، فالغذاء ليس فقط للقضاء على الجوع، بل هو أيضا من مصادر المتعة والصحة، والجنس ليس فقط من أجل الحفاظ على الجنس البشري من الفناء، بل هو أيضا من أجل المتعة والراحة النفسية.

توصل شهاب إلى أن الغذاء هو الحاجة الأولى، فرغم أن هناك من امتنعوا عن إشباع رغبة الجنس لديهم، إلا أنهم لم يستطعوا منع رغبة الغذاء. لو فعلوا ذلك لماتوا، وفي الصوم نفسه الذي فرضه الله على عباده من المسلمين، لا يمتنع الإنسان عن الأكل والشراب أكثر من يوم ليأكل في الليل، وجعل لذلك موعدا

بين آذان الفجر والمغرب. والصوم الذي فرضه الله على عباده من المسيحيين له أول وله آخر، وينتهي بالفرح، الفرح بالأكل وإشباع الرغبة الأولى، وكأن الله أراد أن نعرف النعيم الذي نعيش فيه حين نأكل ونشرب كل يوم دون أن ندقق كثيرا فيما نفعله، وندور نبحث عن أشياء أخرى تجعلنا سعداء. حتى الناس العاديون يقولون عن شهر رمضان أنْ فراقه عيد، عيد بإشباع الرغبة التي نتناساها أثناء الحياة اليومية. في المناسبات التي تجمع الأصدقاء يكون هناك الطعام ويكون هناك الشراب، فيخفف من التوتر، ويسود الهدوء، ويضعف من الاختلاف في وجهات النظر. وإذا غاب الطعام غاب الهدوء وكثرت الاختلافات، فالطعام يصنع الأصدقاء، والأصدقاء يصنعون الطعام ويقيمون الولائم، وتزيد صلة الرحم بالجلوس على طاولة طعام واحدة، وتقل بقلتها. وتقام الولائم في الأعراس في محاولة لإشعار الضيوف بقربهم من صاحب الفرح، وتقام الولائمُ في المآتم لإشعار الناس بالقرب والمودة رحمة على المتوفى. إذا امتلأت المعدة شعر صاحبها بالسعادة، وإذا فرغت شعر بالانقباض والهم والغم. إذا شبع الشخص استطاع النوم، وإذا جاع صعب النوم. حين يأكل شهاب أكلا لذيذا يعبر عنه بكافة أحاسيسه، لا يتعجل أبدا، يأكل ليتلذذ، يصدر أصواتا وهو يأكل ويشرب، يترك نفسه على سجيتها، ويأكل ويستمتع، لا يعرف تناول الحساء أو الرز بالملعقة، يشرب الحساء شربا مباشرة بفمه، وملعقته في الرز هي يده. وحين يأكل لحما يمسكه بكلتا يديه ويخشمه خشمة خشمة ويتلذذ، يتلمظ ويتأوه. حين تدخل اللقمة فمه تصبح ملكه الخاص، هو يعرف ذلك والناس من حوله تعرفه، إنها له وحده، فيعاملها باعتبارها شيئا يخصه وحده لا دخل لأحد فيه، وحين يأكل غيره يعترف أن ليس له نصيب فيما أكله هذا الغير.

ومثل ذلك يفعل مع الجنس، وأوله عاطفة الحب. عاطفة حب الجنس الآخر بالنسبة له هي روح الحياة، هي الضوء في النجوم، وهي اللحن في الموسيقى، وهي الصوت في الغناء، وهي البهجة في اللقاء والجمال في الطيور. هي الارتفاع في الجبال، والنزول في سفوحها، والانخفاض في الأودية. هي

الانسياب في الماء، والاخضرار في الأعشاب. هي شـــق الأرض قبـــل المطـــر، وسقي المحصول قبل جني الثمر. هي شم الورود قبل قطفها، وطهي اللحوم قبـــل أكلها، ولبس العروس قبل زفها. وهي شفق الشمس الأحمر قبل بزوغـــها وقبـــل غروبها. الحب هو اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة. هو جليس ممتع وأليف مؤنس. الحبيب لا يهدأ له بال إلا بحبيبه، ولا يتشاغل إلا به. يحـــب الإنسان لأنه يريد أن يعيش ويحقق رغباته، فإذا أشبعها أحبها أكثر، فيشبعها مـــن جديد فيحب أكثر وأكثر، وهكذا إلى أن تنتهي الحياة.

لم يستطع شهاب أن يخفي مشاعره. صرح شهاب بما شعر بـــه، فكلمـــا التقى بنات القرية تغزل بجمال شعرهن أو عيونهن أو خصورهن، ولم تعـــترض واحدة على ذلك، بل تمنين أن يراهن شهاب ليسمعن مثل هذه الكلمات. لم يصـــدف أن أشار إلى شيء لم يفرحهن. لم يشر إلى مساوئهن، بـــل أشـــار بكلماتـــه إلـــى حسنهن، وما زالت الكثيرات من العجائز حتى اليوم يشرن إلى مـــا قالـــه شـــهاب فيهن. قال أن الشعر لم يخلق لستر الوجه، بل لبيان جماله، فلتدع النساء شـــعرهن يلعب بوجوههن ليزيد جمالهن. وقال أن العيون لم تخلق لرؤية الأشياء من حولنـــا فقط، بل لنرى بها أنفسنا أولا، ولنتفحص بها جمال وجوهنا. وقال أن الحياة خلقـت في الخصور، ومن الخصور تنبت الحياة.

الجنس بالنسبة لشهاب، أن تتعانق الطبيعة مع الطبيعة، أن ترجع الطبيعـة إلى نفسها، أن تكون هي نفسها، فالخلق كان في واحد، والواحد أصبح اثنين، ومـــا الجنس إلا عودة الاثنين إلى الواحد، وفي العودة تكون الحيـــاة، الشـــمس ترســـل أشعتها الحمراء حين يطويها الغروب، والشمس نفسها ترسل أشعتها الحمراء بعـــد أن يطويها الشروق، إنه التوحد مع الآخر. القمر يظهر بدرا حين يكون في السـماء وحده، حين يكون منتصف الشهر يكون وحيدا عاريا، أما في أول الشـــهر وفـــي آخره فإنه يظهر هلالا، يطوي شيئا أو يطويه شيء، يكون متوحدا مع الآخر الـذي لا نراه ولكننا نحس به. وحين يكون الإنسان وحده يسير في الطريق بكامل لباســه،

بكامل هندامه وبكامل لياقته، يضع ستارا بينه وبين الآخرين الذين يرونه، أما حين يتوحد مع الآخر، يزيل الستائر التي تحميه مما قد يعيبه الآخرون منه، يصبح كمـــا هو، بل كما يجب أن يكون. الناس هم الذين خلقوا مصطلح العيب، وهـــم أنفســـهم الذين وضعوا الستائر، ومن يلبسها يصبح مستورا أو مستورة. الناس تعرف كل ما يحدث، ولكن للتوحد قوانين وأعرافا، وما الحياة الكريمة إلا التمشـــي مـــع هـــذه القوانين والأعراف. الناس خلقوا من طين، والطين يحن لذاته بالضبط كمـــا تحـــن قطرات الماء إلى نفسها، تجمع ذاتها وتبحث عن مثيلاتها، وفي تجمعـــها تصبـــح أكثر تأثيرا، فتشكل القنوات والأودية والأنهار والبحار والمحيطات، ومن هو أعظم من المحيط وهو يجمع ذاته على ذاته، ومن هو أعظم من الغيـــوم وهـــي تســـير جماعات جماعات، إنها تبحث عن ذاتها، وتجد ذاتها وتعود لذاتها ثانية فـــي دورة الحياة. كل شيء يعود لذاته كما خلقته الطبيعة، والإنسان يعـــود لذاتـــه بطريقـــة تختلف، صنعها هو بنفسه، فهو يرى أنه مختلف عن الطبيعة، هو يريد تســـخيرها لنفسه، يعتقد أن كل شيء خلق من أجله، ربما بالطريقة التي يعتقـــد المحيـــط أن الأشياء من حوله خلقت من أجله، فلماذا لا نعود إلى أنفسنا بأسهل الطـــرق. إنـــها الحياة التي نحياها ثم نموت، ونرجع للتوحد مع التراب والماء الذي خلقنا منه.

توصل شهاب إلى ما يشبه الفلسفة في حياته، وربما هذا هو السبب فـــي شهرته وكثرة مريديه، ولم يعترض على ما قاله رجل سياسة أو رجـــل ديـــن أو امرأة أو شاب صغير. تنص نظريته على أن الإنسان يسعى في هذه الحيـــاة مـــن أجل إشباع رغبتين أساسيتين، هما الجوع والجنس، وهما الرغبتان اللتـــان جعلتـــا للحياة طعما من جهة، وحولتا الحياة إلى صراع من جهة أخرى. وفي كـــل مـــرة كان شهاب يعيد هذه النظرية، كان يقول: "الإنسان يمكن اختصـــاره فـــي هذيـــن: البطن وما تحته". وكان يشير بيده إلى الموقعين صراحة، ويقول بعد أن يحمـد الله: "ليس صدفة أن جمع الله سبحانه وتعالى بين الأمرين حين جعل حمل المرأة النـاتج عن الرغبة الثانية في منطقة بطنها، إنها وحدة الرغبتين بأفضل أشكالها. وإذا مـــا تم تحقيق هاتين الرغبتين فإن بالإمكان التخفيف من الصراع بين الناس إلى أقصـــى

حد". أما الملكية فيعتقد شهاب أنها جاءت لاحقة لتحقيقهما. فالرغبة في الأكل دفعت الناس لامتلاك الأرض والشجر والبيوت والنقود. والرغبة في الجنس دفعت الناس لامتلاك الطرف الآخر، فكان الزواج.

*****

لم يفكر شهاب بأسباب النجاح رغم أن الناس اعتبروه ناجحا قبل عودته الشهيرة يوم الجمعة من حزيران وانكشاف ما جرى له. لم يفكر شهاب في أمه وأبيه وأعمامه وأخواله وجميع أقاربه، ونجح. لم يفكر شهاب في أهالي حمولته وفي أهالي قريته ونجح. فكر شهاب في نفسه فقط ونجح. لم يفكر شهاب في الشهرة، فأصبح مشهورا إلى أبعد الحدود، وظل مشهورا حتى بعد موته. إنه علامة من علامات اليسيرة، ويحكى عنه في الأمثال وفي القصص الشعبية كما يحكى عن "الزير سالم" و "حديدون" و "خشيبون" و "نص نصيص". يقولون في الأمثال: "مثل جمال شهاب"، "مثل طول شهاب"، "مثل ملاحة شهاب"، "مثل مشية شهاب"، "مثل تفكير شهاب"، "مثل عقل شهاب"، "مثل غيبة شهاب"، "مثل عودة شهاب"، "مثل زفة شهاب على البيادر"، "مثل جمعة شهاب"، "مثل يوم شهاب". أصبح شهاب مشهورا جدا ليس في اليسيرة وحدها، وإنما في كل المناطق التي عرف أهاليها اليسيرة. لا يتوانى أهالي اليسيرة عن سرد قصة شهاب، ولا يسردونها كما هي، بل يضيفون ويحذفون منها حسب الموقف. لا يشبه شهاب بالضبط الرجل الأسطورة الذي اعتدى على المعبد الذي يرتاده الناس ليصبح مشهورا، لكنه خلق روحا جديدة في الناس، أدرك أشياء لم يدركها غيره دون أن يكون معاديا للدين وما يؤمن به البشر. لقد كسر أنماطا تقليدية وخلق نمطا جديدا في الحياة والتفكير. لم يحب شهاب الشهرة، لكنه أصبح مشهورا، وهذه هي العلامة الأولى من علامات نجاحه.

لم يسع شهاب من أجل الثراء، رغم أن الناس اعتبروه ثريا قبل عودته الشهيرة يوم الجمعة من حزيران وانكشاف ما جرى له. أكد أهالي اليسيرة أنه لم

يعمل في شبابه، ولم يمارس مهنة محددة، لكن ثراء أهله جاء من ملكيتهم لأراض كثيرة ومتاجرة جده ومن بعده أبيه بالقماش من الشام إلى فلسطين، ومن فلسطين إلى الشام. ورغم أن شهاب له موقف واضح من القماش والملابس، إلا أنه عاش حتى بعد موت جده وأبيه في ثروة لم يعشها غيره. كان شهاب يعتقد أن الملابس هي علامة من علامات الجمال، وعلى ذلك يسعى كل واحد منا لأن يكون جميلا، وشهاب كان يلبس أحلى الثياب. أما من الناحية الأخرى فارتداء الملابس هي محاولة لعزل الجسد عن العيش الطبيعي، إنها وضع جدار ما بين الجسد والطبيعة. إنها تفصل بين الإنسان والإنسانية، لذلك لبس شهاب أجمل الثياب وأبسطها. لم يشتر شهاب أرضا، بل باع بعضا منها، وظل ثريا. لم يزرع شهاب زيتونا ولا قمحا ولا شعيرا ولا سمسما، ورغم ذلك كان ثريا. لم يتاجر شهاب بالأقمشة كما فعل جده وأبوه، ورغم ذلك كان ثريا. لم يسع شهاب إلى الثراء، إلا أنه عاش في الثراء من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وهذه هي العلامة الثانية من علامات نجاحه.

لم يسع شهاب للسلطة والسلطان رغم أن الناس اعتبروه سلطانا قبل عودته الشهيرة يوم الجمعة من حزيران وانكشاف ما جرى له. أكد أهالي اليسيرة أنه لم يرغب يوما أن ينافس "الحاج مسعود" في نيل المخترة، أو أن يصبح عضوا في المجلس القروي، ولم يسع إلى أن يمتلك سلاحا يتباهى به أمام الناس، لكن سلطته كانت ما قاله وما فعله في حياته، وما فعل به وفيه أيضا، حيث كان محط أنظار الناس وهو صغير، وكذلك وهو كبير. لبس أجمل الثياب، واعتلى فرس أبيه، وتجول في القرية، وبين الحقول، وعلى الجبال، وفي الأودية بالطريقة التي فعلها بسبب كونه ثريا. كان خيالا بالفعل، يحب الهواء النقي، ويحب الحياة، والحياة تكمن بين الناس وبين الطبيعة. لم يسع للسلطة، لكن سلطته كانت كبيرة، الجميع هابوه واحترموه وأحبوه. كانت سلطته أكبر من سلطة المختار "الحاج مسعود"، وأكبر من سلطة "الظبع" الثائر الذي قتل العديد من جنود الإنجليز وكاد

يقتل غير مرة حتى بعد أن عفت عنه الدولة العظمى. كان شهاب سلطان زمانه، رغم أنه لم يسع إليها، وهذه هي العلامة الثالثة من علامات نجاحه.

كان شهاب ناجحا، كان مشهورا وثريا وسلطانا. كان فوق الفشل، وفوق الفقر، وفوق الحياة المغمورة. إنه شهاب الناجح: المشهور والثري والسلطان حتى قبل عودته الشهيرة يوم الجمعة من حزيران وانكشاف ما جرى له.

*****

تزوج شهاب "شرحة"، أو هي تزوجته. فرغم جماله، كانت "شرحة" ليس فيها أي علامة من جماله. إنها على النقيض منه تماما، فهو أشقر البشرة وهي سمراء "مشحبرة" كما يقول أهالي اليسيرة، فلون بشرتها ليس أسمر أو أسود بل خليط "مشحبر" بين هذا وذاك. وشهاب أملس الشعر، وهي أجدعه، وهو فارع الطول وهي قصيرته، وهو ممشوق القوام وهي مدعبرته، وهو حلو اللسان، وهي عاديته، وهو ناعم الصوت وهي خشنته. إنها لا تشبهه في شيء، فكيف تزوجها!

أحبت شهاب كل البنات، الصغيرات منهن والكبيرات، وكان يرى في كل مكان، وزار معظم بيوت أهالي اليسيرة منذ صغره. أكل وشرب منها، واعتبر كل من زاره شهاب أن بركة حلت ببيته. حين أصبح يافعا، لم تتغير عادته، كان الناس يدعونه لزيارتهم، وكان يلبي الدعوة، ولم تحل تركيبة القرية الحمائلية دون أن يتردد على كل البيوت، وحين يحل ببيت ينشغل كل أهالي البيت والجيران به، يلتفون حوله، ويمسدون له شعره، ويزيدون في ترتيب ملابسه، وكثيرا ما طلبت منه الصبايا أن يلعب معهن، ورغم غيرة الصبيان للاهتمام الزائد به وحده، إلا أنهم كانوا ينغمسون في اللعب، فما يأكله شهاب على رأس الملعقة لا بد وأن ينالوا لحسة مما علق على ذيلها، وهذا كان دافعا آخر لهم للعب والاستمتاع. وإذا كان شهاب هو لاعب دور العريس بلا منازع، فإن صراعا كبيرا كان يجري بين الصبايا على من تكون العروس، ورغم الغيرة والحسد، إلا أنهن كن يتركن الخيار

الأخير لشهاب، وكان على عادته ينتقي في كل مرة صبية غير التي اختارها في مرات سابقة، وكن يرضين عله ينتقيهن في مرات قادمة. وهكذا تتجمع الصبايا، يغنين للعروس، ويحنينها، ويزففنها، ويصمدنها، ويرقصن أمامها. يقال أن بنات القرية تعلمن الرقص والأغاني في مثل هذه الأعراس. أما الصبيان فكانوا يمثلون تمثيلا حقيقيا ما يقوم به الرجال في هذه المناسبة، كتقديم الحليب والشاي والأكل، ويسمرون، ويصخجون، ويدبكون، ويحممون العريس، ويزفونه. ويقال أيضا أن الصبيان تعلموا عادات الأعراس في هذه اللعبة المفيدة لكل واحد وواحدة في القرية.

كانت "شرحة" مقدامة. كانت تلك الصبية التي لم تكن تملك أي جمال مما في شهاب أو في غيرها من الصبايا، لكنها كانت في المقابل جريئة بشكل لا يصدق. كانت هي أولى المتوددات، وأولى المغنيات، وأولى الراقصات، وحين تخجل الصبايا من تمثيل دور العروس تكون هي أولى المتبرعات. كانت مغناجة في التودد، وحسنة الأداء في الغناء رغم صوتها الخشن، بل كانت بداعة، تبتدع مقاطع لأغان معروفة، فتضيف إلى معرفة أهالي اليسيرة شيئا جديدا، ورغم "دعبرة" جسدها إلا أنها كانت تسيطر على كل عضلة من عضلاته بشكل لم ير في اليسيرة من قبل. كان باستطاعتها أن تحرك عضلات جسدها في حركة هرمونية عجيبة، كان رأسها يتمايل كما أغصان الشجر في الربيع، وكما سنابل القمح أيام النسيم، وكانت "تطعوج" رقبتها هكذا وهكذا (!)، وكانت تهز كتفيها من فوق ومن تحت، وتلفهما لفا في حركة دائرية متناسقة، أحيانا في نفس الاتجاه وأحيانا أخرى عكسه، وتحرك صدرها كأنها تلعب به لعبا، ويروح بطنها إلى اليمين واليسار وإلى فوق وتحت كما لو كانت أمواجا من البحر، وتحرك وسطها كما كتفيها، أحيانا ببطء، وأحيانا بسرعة، تسيطر عليه كما يسيطر سائق على مقود سيارة، وتدور برجليها في حركات غريبة في كل اتجاه، أما قدماها فكانتا تتلويان على الكعبين تارة وعلى بطنيهما حينا، وعلى حافتهما دورا وعلى الأصابع مرة أخرى. إنها "شرحة" التي جذبت انتباه شهاب وجذبت انتباه الصبايا حتى أنهن تمنين أن

يستطعن ما تستطيعه. رقصت "شرحة" بجسدها، ورقصت بإيماءات وجهها. كانت ترقص ما لم تستطعه امرأة في اليسيرة أو في غيرها، كان فمها وحركاته جزءا من الرقص، وعيونها المعبرة جزءا آخر، حتى شعرها الأجعد كان جزءا ثالثا من الرقص الجميل.

كانت "شرحة" هي ملكة التودد بلا منازع، وكانت ملكة الغناء بلا منازع، وملكة الرقص بلا منازع، وملكة حين تمثل دور العروس بلا منازع أيضا. حين تصمد بجانب شهاب على ما يشبه اللوح، وترقص البنات الأخريات أمامهما. تظل تتمايل نحو شهاب، وتهمس في أذنه أشياء وأشياء حتى تسرق عقله، فلا يعود يتطلع إلى الجميلات من حوله، ولا إلى ممشوقات القوام، ولا إلى حسنات الصوت، فحين تكون "شرحة" في الساحة، تكون الساحة لها وحدها، وهكذا ينشرح قلب شهاب وينشرح قلبها. حينذاك لا يعود المعنى لاسمها إلا الانشراح، لا يعود اسمها يعني جزءا صغيرا من بطيخ أو شمام أو ما شابه، إنها تشرح له صدره، تفتح هذا الصدر وتزيل كل ما علق به من شوائب، ومن هم وغم، وتلقيه خارجا، وتبعث فيه الغبطة والسرور، والتهيج والتورد والانشكاح. "شرحة" تشرح الصدر، أي تنوره وتجعله فسيحا رحبا واسعا، سمحا سهلا لا حرج فيه ولا اصر ولا ضيق. عادة ما تكون ذروة الحفل حين تراقصه، فشهاب وسيم وطويل القامة وحلو الوجه، ورغم رقته حتى في رقصه وهو يضع يده اليسرى خلف ظهره ويرفع يده اليمنى عاليا كما السيف، ويدور حولها بحركات مموسقة، إلا أن "شرحة" كانت تسحره برقصها، تجره من موقع إلى آخر دون أن يدري، تقترب منه وتسوقه في الحلبة، وتبتعد وتسوقه في الحلبة. تتلوى أمامه برأسها وبرقبتها وبصدرها وببطنها وبوسطها وبقدميها، فيرقص دون وعي، يرقص وهو يتطلع إلى عينيها، فتسحرانه، ويرقص معها وهو لا يعي وجود أحد سواها، تمتلكه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، وتسيطر على حواسه، وتسرق عقله. كانت "شرحه" تضبعه، فيصبح بين يديها مثل العجين، تراقصه وتراقصه، فينتشي شهاب من الرقص ويود المزيد، و"شرحة" فقط هي التي تمتلك المزيد، المزيد من الفن، والمزيد من الجرأة،

والمزيد من الامتلاك. استطاعت "شرحة" أن تمتلك القدرة على تحريك يديه ورجليه وكل جسده كما تريد، واستطاعت "شرحة" أن تجعل منه راقصا أشبه بالغجر حين يرقصون، سيفه يده، وحصانه قدماه، وركابه نعلاه. لا، بل أكثر من ذلك، شهاب هو الحصان، و"شرحة" هي الخيال، تمسكه بلجام، وتطير به في الهواء، وتدور به من هنا إلى هناك. فتنت "شرحة" الجميع بحركات رقصها، وفتنت شهاب أيضا. كانت هي ملكة التودد والغناء والرقص بلا منازع.

هكذا فعلت معه، وهكذا رضيت الصبايا بما يحدث. غرن منها عندما مثلن دور العروس، فإذا رقصت أمامه سحرته وهو مصمود، فنزل يراقصها، ولا تكسب المصمودة حينها إلا الجلوس على المنصة المزعومة. وعندما كان يرقص مع تلك الفتاة التي تمثل دور العروس تغني "شرحة" ما لم تغنه صبية أخرى من قبل، فتسحره بكلامها وحسن أدائها، فينسى أنه يراقص فتاة أو تراقصه، ويردد اسم الجلالة كلما سمع مقطعا. غنت له ما غنته الجليلة لكليب أمام الملك التبع اليماني قبل قتله:

مقالات الجليلة بنت مرة
شربت الخمر ما بين الإمارة
شربنا الخمر في كاسات جوهر
فزال العقل وأصبحنا سكارى
بحضرة شهاب الملك المسمى
بحسان إذا ما شن غارة
وقد أمسيت في قبضة يديه
ومن حبي أشعل قلبي بناره
ألا يا حارس البستان صنه
وإن فرطت في الطير طاره

وكانت "شرحة" تعيد البيت الأخير غير مرة، وهي منتشية من حسن أدائها، وتروح تؤديها بأكثر من طريقة، لتختتم بها الأغنية، فيعلق شهاب قائلا بأعلى صوته: "لا والله، لا أفرط، لا أفرط، لا أفرط".

لم يستطع شهاب الإفلات من "شرحة"، فإذا ما رقص شهاب مع إحداهن، دارت حولها، وظلت مقابله فلا تزيغ عيناه عنها، وراحت تؤدي حركات بعينيها تارة، وبفمها تارة، وبحركات شعرها ورقبتها وكل رأسها تارات وتارات، مشيرة إلى كتفها اليمين مرة، وإلى كتفها اليسار مرة، وإلى الأفق تارة، وإلى الأرض تارة أخرى حتى يجن شهاب مما يحدث ولا يعرف كيف يرقص، وكيف يتصرف مع مراقصته، ينسى الرقص، وتتلعثم حركاته، ويغيب الانسجام والتوافق بين حركات أجزاء جسده. أما إذا استطاعت مراقصته جذب انتباهه بشكل ما، سواء لجمال وجهها، أو لامتشاق قوامها، أو لحركات تؤديها، فإن "شرحة" تتبع أسلوبا آخر، وهو أن تتغامز وتلقي النكات هنا وهناك، وتلهي الصبايا واحدة واحدة، بحيث تصبح "شرحة" خارج الحلبة هي مركز الانتباه، وتصبح الحلبة دون اهتمام من أي منهن. وإذا لم تنجح في ذلك فإنها تبدأ بالغناء الراقص أولا، ثم تنتقل لنوع آخر من الأغاني الهادئة التي لا يحلو معها الرقص، تصمت الطبلة، وتردد الصبايا من بعدها أغاني يندبن فيها حظهن الماضي والآتي، حتى أنها تبكيهن، وتبث الهم في قلوبهن وعقولهن، وعند ذلك ينتهي الحفل، أو يتحول إلى حكايات من هنا ومن هناك، ويكون ل "شرحة" دور الريادة دوما. وإذا ما فشلت في هذه وتلك، اختلقت مشكلة "لتفركش" كل هذا الاحتفال اللعين، وكانت في كل مرة تنتهي المشكلة لصالحها، فهي لا "تخافش" فقط، بل تتلفظ بعبارات لا تجرؤ واحدة غيرها على تلفظها، لا يعنيها الحاضرين، ولا يعنيها الغائبين، ولا يعنيها إن كانوا ذكوراً أو إناثا، ولا يعنيها إن كانوا أمواتا أو أحياء، ولكل واحدة منهن عندها لها لقب، فهذه عوجاء، وهذه عبدة، وهذه أم سحنة مايلة، وتلك أم قفا مثل الوطا، وتلك الطنجرة، وتلك وتلك وتلك.

*****

كانت "شرحة" في النهاية من نصيب شهاب، وهو الأجمل والأشلب من شباب اليسيرة، هو الهادئ الذي يمشي مثل الطاووس في مزرعته، وهو ممشوق القوام من بين شباب القرية ومن القرى حولها. كيف حدث ذلك؟ كل له روايته في القرية وفي غيرها، ولا يتفقون على قصة واحدة، فهي مثل أية قصة مشهورة، يرويها كل بطريقته، وتروى مع الزمن من جيل إلى جيل، فتصبح بعيدة عن القصة الحقيقية، يتم الاختلاف أولا على التفاصيل، وعلى طريقة الرواية، ثم ينتهي الخلاف إلى أصل القصة كلها من أولها إلى تاليها، وهكذا كان.

وجد شهاب أن ليس هناك مثل "شرحة". صحيح أنها لم تكن الأجمل، لكنها كانت الأكثر إغراء له ولغيره، فبجرأتها كانت تتكلم معه كما تتكلم زوجة مع زوجها، تناغيه، وتلاطفه، وتأمره أحيانا، فلا يستطيع سوى إطاعتها. كانت تمتلكه حين تراقصه، وتمتلكه حين تغني له، وحين تجالسه، وحين تشتبك مع الأخريات من أجله. كان شهاب الأكثر شهرة من بين الشباب لجماله ولحسنه، وكانت "شرحة" الأكثر شهرة بألفاظها المميزة كلما تلفظت، وبالحركات التي تؤديها كلما تحركت، ولدورها في الأعراس كلما حدثت. كان كلاهما الأكثر شهرة من بين أبناء القرية حتى أن اسميهما ارتبطا معا، ارتبطا بالسخرية أحيانا وبالجد أحيانا أخرى، وحين قررا الزواج كان الخبر أشبه بالمثل: "شهاب تزوج "شرحة"، و"شرحة" تزوجت شهاب"، وهكذا كان.

كان شهاب يتجول في القرية وخارجها على حصانه المعهود، وكان يسابق الآخرين ويسبقهم، فشهاب هو أحد خيالة اليسيرة، وفي الأعراس عادة، وفي مناسبات حضور مسؤول من اللواء، يطلب المختار من الخيالة القيام باستعراض، يصطف الخيالة بخيولهم في السهل المقابل للقرية، يلوح أحدهم بيده أو بقطعة قماش، فتبدأ المسابقات، ويكون الفائز في معظم الأحيان هو شهاب، ويجد التشجيع في كل مرة حتى لو لم يفز في النهاية. في مثل هذا السباق يركض الصبية من حول الخيالة ويسابقون الخيل في محاولة استعراضية، وتجري استعراضات أخرى

مثل "المباطحة" التي لا يشترك بها شهاب أبدا، وقد يتطور السباق فيصبح متنوعا، يتسابق الخيالة، يكون كل واحد منهم على فرسه وحده ذهابا، ويحمل معه طفلا إيابا، وفي إحدى المرات حمل شهاب "شرحة" معه، ولم يتوقف عند نهاية حد السباق، بل ذهب بعيدا، بين الجبال وتحت كثة اليسيرة، ويقال أنه تزوجها هناك بعيدا عن الناس، وسميت باسمه، وهكذا حدث.

كان شهاب يقضي جزءا من وقته تحت كثة اليسيرة، وكان أحيانا ينام هناك. كانت النسوة يأتين هناك لينذرن، يشعلن الزيت ويدعون ستنا اليسيرة لتحقيق رغبة لديهن، وكانت "شرحة" تتردد هناك هي الأخرى. سمعها شهاب وهي تقول: "يا ستنا اليسيرة، يا من جعلت من العسر يسرا، ارضي عني أولا، وسأكون في طاعتك وفي طاعة أهالي القرية التي سميت باسمك، دعي شهاب يرضى عني، أريده أن يكون لي وحدي، أريده أن يكون زوجا لي، وحينها أكون خادمة لك وله طوال عمري". سمع شهاب ذلك، وهو ما يزال مختبئا وراء شجرة من شجراتها، بل سمع كل نساء وبنات القرية وهن يبحن بما في أنفسهن، فعرف أسرارهن، وما يدور في أذهانهن. سمع شهاب "شرحة" وهي تدعو مبتهلة إلى اليسيرة أن يعطيها شهاب، فرد عليها بصوت ظنته صوتا ملائكيا: "وماذا لو حققت لك طلبك؟". قالت وهي مصابة بشيء من الهلع والخشوع: "أعطيه نفسي، أعطيك يا ستنا اليسيرة نفسي". وبكت و "نشغت" كثيرا. فقال وهي لا تدري من أين يأتيها الصوت: "إنه لك، لك وحدك، قومي إليه فإنه في انتظارك خلف الشجرة". وكما الإنسانة المخدرة قامت ومشت، فإذا به هناك. قالت له: "أنا لك، لك وحدك، أعطيك نفسي. هل تقبل بي زوجا لك؟". قال: "أقبل". وهناك تزوجها بشكل شرعي أمام الله وأمام اليسيرة، وهكذا صار.

كان شهاب يتردد على عين الصافي، نبع الماء الذي اجتذب الصبايا لملء جرارهن فيحملنها على رؤوسهن، أو الأوعية المحمولة على الحمير والبغال. نبع الماء هذا كان يجتذب رعاة الأغنام والأبقار والحمير يرعون حلالهم قربه، حيث

تكثر الأعشاب الخضراء، وعند الظهيرة وقبل مغيب الشمس يسقون منه الحلال. كان نبع الماء هذا يجتذب المزارعين لاستغلال أراضيهم القريبة، حيث يسقون منه مزروعاتهم من السبانخ والملوخية والفجل، وحتى البندورة والبامية والفاصولياء واللوبياء وغيرها. وكان يعتبر في الصيف مرتعا للكثيرين من أهالي القرية يزرعون ويحرسون ويتاجرون هناك. وكم تمنى الكثير من أهالي القرية أن يمتلكوا دونما قريبا منه، وكان يكفي الواحد من القرية أن يقول أنه يمتلك دونما هناك يتباهى به ويعيش في اطمئنان. كان نبع الماء هذا يجتذب الصبايا والنسوة يغسلن بمائه أسبوعيا خاصة في الصيف، فبدل اجتلاب الماء إلى البيوت وغسل الملابس في القرية، تأخذ الصبايا والنسوة الثياب المتسخة يغسلنها هناك، وينشرونها لتجف هناك، ويستحممن هناك، ويعدن إلى البيت وقد أنهين كل شيء. اجتذب هذا النبع الرجال أيضا، فهم لا يقومون بأعمالهم بمساعدة مائه فقط، بل كانوا يعيشون هناك للعمل والتجارة خاصة وأن مكان هذا النبع يعتبر قريبا من البيادر وقريبا من المدينة، حيث يأتونه على أقدامهم، ويأتونه راكبين على حميرهم وبغالهم، يشترون من هناك ويبيعونه في المدينة. هذا المكان هو نفسه مكان لتجارة الأغنام وباقي الحلال، وفي السهل المقابل له يجتمع الناس من كل قرية بما سمي مع الزمن سوق الحلال، وربما كان هذا دافعا آخر للرعاة للتواجد في المنطقة. اجتذب نبع الماء هذا الشباب والصبيان، ليس فقط للانضمام إلى أهاليهم الذين كانوا يجدون فيه مآربهم، بل أحيانا للسباحة في بركته، ولملاقاة الفتيات والصبايا عند الماء. جعل نبع الماء هذا معنى للحياة هناك، للكبار وللصغار، للذكور وللإناث، لأهالي اليسيرة ولغيرها، ولشهاب ول "شرحة"، يلتقون، ويغنون ويرقصون و"يشببون" ويلعبون ويلهون. ماء النبع هذا يغسل الأفئدة كما يغسل الأجساد، ويغسل الروح من كل شائبة، يزيل الحواجز بين البشر، وبين أهالي القرية وغيرهم، وبين كلا الجنسين، فكم من خطبة تمت بناء على لقاء تم عند هذا النبع. إنه ليس فقط نبع ماء، إنه نبع الحياة. كان شهاب يسبح هناك، وتحلو السباحة مع شهاب، فهذا الجسم البض الذي لا يماثله جسد شاب في القرية، تحلو السباحة معه، يداعبه الشباب، يطلونه بالطين

الأحمر وبالطين الأسود حينا في محاولة لجعل هذا الجسد مثل أجسادهم، ويطلون أجسادهم بالطين الأصفر علها تقترب من لون جسد شهاب، لكن الماء يغسله، ويعلو الهرج والمرج عند النبع، تقترب الصبايا من البركة، ويراقبن ما يجري، ويصلين على النبي، وتناديه الصبايا ويناديهن، تقترب "شرحة" منهم، وتلقي جسدها في الماء، وتسبح هي الأخرى، ويحلو له قضاء الوقت معها. إنه شهاب، وهي "شرحة"، يعيشان ويموتان، ومع الزمن تصبح "شرحة" زوجا لشهاب. وهكذا تتغير الأمور.

(٣)

توجهت إلى المدينة، يوم السبت من حزيران، للحصول على "قوشان" من دائرة الأراضي في المدينة. كان الوقت صباحا. استغرقني الوصول إلى المدينة حوالي نصف ساعة، لكني وصلت أخيرا. في الطريق، كنت أفكر بمدى ضرورة هذه الإجراءات الطويلة والمعقدة للحصول على "القوشان". ربما تكون هذه هي المرة العاشرة التي أتردد فيها على نفس المكان. القصة ببساطة أنني أريد تسجيل الأرض باسمي، فطوال العشر سنوات السابقة التي عشتها بعد وفاة والدي، يعرف جميع أهالي اليسيرة أن الأرض التي أشرف عليها هي لي، ورثتها عن جدي ومن بعده أبي، وفي كل يوم تريد السلطات التأكد أن كلا يعمل في أرضه. قالوا ذلك من أجل تقدير الضرائب على الأرض وعلى المزروعات، لكن السلطات هذه لا تسهل الأمور. قالوا مرة أنهم يريدون حصرا للإرث فحصرناه، وطالبوا مرة شهادة المختار فشهدناه، فأمروا بحضور المختار الثاني والثالث والرابع، فحضروا وإن لم يكن في نفس اليوم، وطالبوا مرة أخرى بجلب ورقة الطابو باسم جدي فجلبتها، ومرة أرادوا شهادة العاملين ليتأكدوا من شكل عملهم في الأرض فأحضرت معظمهم، ومرة طالبوا بدفع ما تبقى من ضرائب فدفعتها، ومرات طالبوا أن أعود بعد أسبوع أو أكثر حتى يتم عرض الأمر على دائرة تسوية الأراضي، وشاهدت موظفي التسوية وقد خيموا قرب اليسيرة. قاموا بمسح الأراضي، وقاموا بتسجيل أراضي الزيتون وأعمدة التلغراف ومساحات الشوارع والبيادر والأرض المقامة عليها المساجد والمقابر، ومساحة الأرض المقامة عليها البيوت. مسحوا كل شيء، فاعتقدت أن الأمور بدأت تتيسر، لكن كل ذلك لم ينعكس إيجابيا في حصولي على شهادة التسجيل التي أسعى إليها.

استغرقني أمر تسجيل الأرض شهورا دون نتيجة واضحة، وكثير مثلي عانوا مثلما عانيت وإن كان بدرجة أقل أو أكثر. سألت موظفي دائرة الأراضي عن السبب فقالوا أنه يجب التدقيق في ملكية هذه الأراضي الواسعة. استوعبت الأمر بشكل ما، لكني بدأت أشك بكل الموضوع بعدما كان يحدث معي قبل الدخول إلى دائرة الأراضي أو بعده. تعرفت على محام عربي اسمه مراد. تبرع أن يساعدني في تسجيلها باسمي في أقصر وقت ممكن. لم أقتنع بضرورة وجود مراد أو أي محام آخر، فالقضية بالنسبة لي واضحة. إنها أرض جدي ومن بعده والدي، وهي لي على كل حال، فلماذا المحامي! طلبوا الإثباتات وأحضرتها. طلبوا الشهود وأحضرتهم، ووقعت كل الأوراق اللازمة. كنت أجد مراد على باب دائرة الأراضي كلما ذهبت هناك، فيسألني عن التقدم في تسجيلها، وعرض خدماته لمساعدتي. كان يدخل أحيانا معي عند المسجلين، وسمعتهم عدة مرات يقولون: "الأمور من جهتنا كاملة، لكننا بحاجة إلى مصادقة السلطات، والمصادقة لم تأت بعد، المصادقة يجب أن تأتي من لجنة التسوية". سألت مراد عن الوقت الذي تستغرقه المصادقة، فقال: "المصادقة هي أمر شكلي". ولاحظت أنه وجدها فرصة للحديث أكثر، دعاني لشرب القهوة، قادني إلى مقهى قريب، وجعل يتحدث ويتحدث. قال أشياء لها علاقة بموضوعي، وأشياء ليس لها أية علاقة مباشرة بقضيتي. حدثني عن القوانين الجديدة المتعلقة بالأراضي وتسجيلها، وحدثني عن لجنة التسوية وعن أعضائها. قال: "تتكون هذه اللجنة من خمسة عشر عضوا برئاسة فريدرك سلمون، وعضوية إنجليز ويهود وعرب". سألته عن الأعضاء العرب، فقال: "هم غالب النشاشيبي وأمين درويش كمساعدين لمأمور التسوية، وتوفيق ناصر كمساح أراض، وشكري صالح وأسعد سالم ككتاب تسجيل". حدثني عن رغبة الكثيرين من التجار بشراء مساحات واسعة منها، وحدثني عن الأسعار التي تزداد يوما بعد يوم حتى وصلت إلى حوالي عشرة جنيهات للدونم الواحد، وحدثني عن عدم قدرة الفلاحين مستقبلا على العيش مما تنتجه الأرض مقابل الشركات الزراعية الكبيرة والزراعة الجماعية المنتشرة، حيث تقوم هذه الشركات

بإنتاج أنواع معينة من الخضار والفواكه، وتقوم بأعمال التصدير. وحدثني عن تخلف المزارع الفلسطيني بالنسبة لغيره خاصة أولئك القادمين من أوروبا وغيرها، وقبل أن نفترق دلني على عنوان مكتبه في المدينة.

ذهلت من هذه المعلومات التي يمتلكها هذا المحامي. تحدث في كل شيء كأن العالم كله بين يديه، كأنه يرى العالم من خلال منظار يظهر كل صغيرة وكبيرة، يركز كل مرة على زاوية منه فترى ما صغر منها. هذا المحامي طليق اللسان بشكل لم أعرفه من قبل، حين يبدأ الحديث من الصعب إيقافه. يعرف كل شيء، وتسيل الكلمات والجمل من فمه كما يسيل الماء في نهر. لم أشعر بالملل من حديثه، ولم أسأل سؤالا دون أن أجد لديه الجواب. جذبني بطريقة حديثه، وجذبني بمعرفته أشخاصا عديدين. تحدث عن أسماء سمعت بها، وأخرى لم أعرفها. تحدث عن القيادات العربية، وتحدث عن القيادات الإنجليزية واليهودية أيضا. تحدث عن الحياة التي تحياها كل من هذه الشعوب وعن شعوب أخرى. تحدث عن عاداتهم وتقاليدهم، وتقدمهم وتأخرنا، وصراعنا معهم وحتمية انتصارهم علينا. رفضت أن أستوعب كل ذلك، لكني لم أملك الدليل لعدم استيعابي، فبقيت معظم الوقت أستمع إليه، وصرت أزوره في مكتبه.

يقع مكتبه في الشارع الرئيسي قرب دائرة الأراضي في الطابق الثاني من بناية مكونة من أربعة طوابق. يتكون المكتب من صالة للمراجعين، وغرفة له، وغرفة اجتماعات. استقبلني هناك استقبالا حافلا. كان يلبس بدلة زرقاء اللون مثل لون عينيه. يجذب كل زائر له بشكله قبل أن يسمع حديثه المتتابع والمشوق، فمراد الأنيق الملبس، والممتلئ الجسد، والأبيض البشرة، والأملس الشعر، يجعلك ترتاح له من أول وهلة. رحب بي كثيرا، وشربنا الشاي والقهوة. سألني إن كنت قد تلقيت ردا من السلطات حول الأرض، وقبل أن أجيبه، تحول إلى قضايا أخرى يعالجها. قصص كثيرة وأخبار كثيرة. سعر الأرض واحدة منها، والأموال الكثيرة التي تدور بين الناس هي ثانية، والمصانع التي بحاجة إلى ترخيص إنشاء،

والبضاعة التي بحاجة إلى رخص تصدير أو تخليص من الموانئ، والشوارع المخطط لها التي تفصل البيارات إلى قسمين أو أكثر، والمعسكرات التي تقام على أراض مستأجرة لفترة طويلة. استمعت إلى أكثر من قصة في زيارة واحدة، وبت أدرك كم هذه المعرفة التي لدى المحامي مراد، والذي يناديه الناس بالأستاذ. لم يكن زوار الأستاذ مراد من العرب فقط، كان هناك أجانب يتكلمون الإنجليزية إذا تحدثوا مع الأستاذ أو يتكلمون لغة عربية ركيكة، ويتكلمون لغات أخرى منها العبرية حين يتحدثون مع بعضهم بعضا، وعرفت أن المكتب يدار من أكثر من محام منهم مراد.

دخل أحد الفلاحين المتقفين مستنجدا بالأستاذ، وقبل أن يرحب به، قال: "كيف لك أن تساعدني يا أستاذ؟ هل يدفعونني لأن أبيع أرضي! الحكومة تجبرني على دفع الضرائب والأعشار المطلوبة على تلك الأرض، وأنا لا أملك ما أتمكن به من سد رمقي ورمق عائلتي، فأضطر لأن أتقدم للغني، ضارعا عله يجود علي بالدين، فبدلا من أن يجود علي بالعطاء، يداينني بعد رجاء وإلحاح على أن أرده بعد شهر أو شهرين بالإضافة إلى نصف القيمة زيادة على ما أخذت، وعندما يحين الوقت لا أجد في جيبي من النقود ما أتمكن به من تناول عشائي تلك الليلة، فيكتب علي تعهدا بمضاعفة المبلغ مقابل التأجيل شهرا أو شهرين، وهكذا لا أزال بين زيادة ووعد حتى تبلغ القيمة بعد سنة أو سنتين عشرة أضعاف ما أخذته منه، فإذا أخذت منه عشرة جنيهات، تبلغ بعد سنتين مائة جنيه، فيضطرني أن أبيع أرضي، فماذا أفعل يا أستاذ؟". سأله الأستاذ عن موقع الأرض، فأجابه، وقال: "ماذا نفعل إذا لم يكن هناك صندوق إقراض مثل "كيرن كييمت"! ماذا نفعل إذا كان أمثالك لا يحصلون على مساعدات من "صندوق الأمة الفلسطيني" أو "المشروع الإنمائي العربي"!". صمت برهة ثم قال: "كم تسوى أرضك؟". رد الفلاح: "ربما اثني عشر جنيها". صمت ثانية ثم قال: "ما رأيك لو بعت الدونم الواحد بعشرين جنيها؟". قال الفلاح: "بعشرين جنيها! هذا كثير". وتواعدا أن يلتقيا في اليوم التالي.

دخل رجل آخر، يضع عباءة على كتفيه، ويتزنر بمسدس، ويقدح الشور من عينيه. وقف في منتصف الساحة، ثم قال بلهجة فيها كثير من الحدة: "أين الأستاذ مراد؟" فإذا بمراد يأتي نحوه مسرعا، وقال: "أهلا بالحاج أحمد، تفضل واسترح". قال وهو يرفع سبابة يده اليمنى: "لم آت لأستريح، راحتي أن يبتعد هؤلاء عني". فقال الأستاذ ملاطفا: "ولماذا لا تسجل أرضك حتى تعرف حدودها أمام أهلك وعشيرتك، وأمام السلطات". ابتعد الحاج أحمد خطوتين إلى الوراء، واستل خنجرا من على وسطه، وقال: "بهذا الخنجر يعرف أهلي وعشيرتي حدود أرضي، والسلطات ستعرف ذلك"، ثم خرج. لحقه الأستاذ مناديا عله يعود، لكنه لم يعد. قال الأستاذ موجها الكلام إلي وإلى الجالسين في الصالة: "ماذا نفعل مع أمثال هؤلاء؟ لا يريد أن يسجل أرضه خشية دفع الضريبة المترتبة عليه، ولا يريد إحضار الوثائق التي تثبت ملكيته لها! هو غلطان، فإذا لم يسجلها، ستعتبر السلطات أن الأرض لها، ولا يملك سوى أحقية استخدامها بأجر".

*****

كنت وأنا في الطريق مترددا بين الذهاب مباشرة إلى دائرة الأراضي أو الذهاب إلى مكتب الأستاذ. أنا لن أبيع أرضي على كل حال، وحتى لو فكرت في البيع لا بد أولا من أن أحصل على "قوشان" باسمي، فالمسألة إذن محلولة تماما من قبلي، والنتيجة واضحة، لا بد أن أحصل على إثبات من السلطات أن هذه الأرض لي. حاول الأستاذ عرض الموضوع علي بأشكال مختلفة، لكني لم أشك كثيرا أنه سمسار لصالح اليهود أو الإنجليز، فهو لا يبدو تماما على هذه الصورة، بل يبدو أنه يحاول مساعدة أمثالي، ويريد أن تسير الأمور بشكلها القانوني. لم يضغط علي بشكل مباشر لبيع الأرض، لكن ترددي على مكتبه أتاح له التعرف علي بشكل جيد كما أتيحت لي فرصة التعرف على كثيرين من زائريه والعاملين معه، منهم تلك المرأة المعروفة باسم "شوش"، و "شوش" هذه طويلة القوام، برونزية البشرة، تتحدث العربية بركاكة، أصلها من أمريكا الجنوبية، وهي تمتهن المحاماة، لم أندفع للتعرف عليها بسبب كونها يهودية، لكنها كانت رقيقة في التعامل معي. اقتربت

مني وحاولت أن تساعدني هي الأخرى، وحين عرفت قصتي، أظهرت تضايقا، وحملت السلطات الإنجليزية مسؤولية ما يحدث من إعاقة في تطبيق قوانين البلاد وكذلك في سن القوانين التي تيسر على المواطنين العيش وبناء المستقبل. كانت "شوش" تسألني كثيرا عن الحياة التي يعيشها أهالي اليسيرة والقرى المجاورة، وجدت أن لا فائدة من إخبارها أي شيء، ماذا أخبرها! هل هي مهتمة فعلا بجواب سؤالها! هل هي مهتمة بحياتي مع "شرحة"! وهل هي مهتمة بشخص "الظبع" و"أبو عمي" و "الحاج مسعود" وغيرهم من أهالي اليسيرة! لم أعتقد ذلك، وحاولت من جهتي تجاهل الأمر.

سألت: "من هم الأشخاص المهمون في بلدتكم؟" قلت دون تفكير عميق: "الظبع". ضحكت، وضحكت هي الأخرى، وقالت: "حدثني عن الظبع". بدأت أسرد لها بعض الحوادث المرتبطة ب"الظبع"، حدثتها عن بنية جسده القوية، حدثتها عن وحشيته، وعن قصة عض العربيد للحم قدمه فلم يستطع الإفلات منه، فجره "الظبع" إلى اليسيرة دون أن يحس بأنه يجر عربيدا. حدثتها عن قصة زواجه ب "جليلة" ومن بعدها "مظوية"، وعن علاقته ب "أبو عمي"، وحدثتها عن قصصه مع الضباع، وعن صراعه مع المختار "الحاج مسعود". اعتقدت أنها سألت لمجرد فتح حوار ما معي وإشعاري بالاهتمام بي، لكنها كانت تطرح العديد من الأسئلة حول كل قصة أوردها. ووجدت نفسي وقد حدثتها عن كل شيء في اليسيرة بما في ذلك قصة زواجي من "شرحة". رغم تحرجي من بعض القصص المتعلقة بالمواجهات بين أهالي البلدة والإنجليز أو اليهود، إلا أنها أظهرت أن هذه الأمور تحدث عادة، وفي أمريكا الجنوبية تحدث العديد مثل هذه القصص. الأمر المهم أننا بتنا نلتقي كثيرا، تناولنا الغداء معا غير مرة، وشربنا أنواعا مختلفة من المشروبات غير مرة أيضا. لقد بت أعرفها، وتعرفني. نلتقي في مكتب الأستاذ مراد، ونتحدث، وتسألني عن أخباري، وأسألها عن أخبارها، وإذا ما توفرت فرصة نخرج إلى أحد المطاعم فنتناول الغداء.

أصبحت "شوش" جزءا من حياتي في المدينة، كلما ذهبت هناك ألاقيها أو أسأل عنها، فيبلغني الأستاذ أنها سألت عني هي الأخرى. بدا أن الأستاذ يعرف أن علاقة ما قد تكونت بيني وبينها، ويعرف أن العلاقة لم تقتصر على الأحاديث، لكنه لم يقل ذلك مباشرة، ولم أقل ذلك أيضا. طلب مني في إحدى المرات أن أذهب إلى الفندق الذي تنزل فيه، وذهبت، وهناك واقعتها. كانت حارة أكثر مما عرفت في هذه المدينة أو في اليسيرة. كانت حارة أكثر من "شرحة". كان الفرق كبيرا بين الاثنتين. كان الفرق بالتحديد هو شعوري بعلاقة مع إنسانة متعلمة مقابل "شرحة" التي لم تلتحق بالمدرسة سوى عدد قليل من السنوات. كان الفرق هو أنني أعرف في هذه الدنيا أكثر مما تعرف "شرحة"، و"شوش" تعرف أكثر منا نحن الاثنين، بل ربما تعرف أكثر من كل أهالي اليسيرة مجتمعين. هل يختلف الشعور مع أنثى متثقفة مقارنة بغير متثقفة! نعم، لذلك وجدت في "شوش" طعما خاصا. تحدثني "شرحة" دوما عن اليسيرة وما يدور فيها، تحدثني عن نساء اليسيرة ورجالها، وعن المشاكل اليومية التي تقع فيها. "شرحة" تحدثني عن العالم الذي أعيشه كل يوم والذي لا أود الانغماس فيه كثيرا، لكن "شوش" تحدثني عن العالم الذي لم أره يوما من الأيام. "شوش" تجعل لكل شيء نكهة خاصة، فالأكل معها له نكهة غير التي أعرفها في اليسيرة، والشرب معها له نكهة لذيذة، والهدوء الذي تخلقه له تأثيره، والتأوهات التي تطلقها ليس مثلها تأوهات. فاقت "شرحة" في ذلك. "شوش" تختلف، ولذلك أحببتها. لم تطلب مني الزواج، ولم تطلب مني نقودا مقابل هذه العلاقة، إذن هي ليست مومسا، هي تريد فقط المتعة، وأنا أريد ذلك، لذلك أحببتها أكثر. لو طلبت مني بعض الجنيهات لأعطيتها، لكن شعوري نحوها سيختلف. "شوش" تعلمني كل يوم شيئا جديدا عن هذه البلاد وعن بلاد أخرى، "شوش" تهتم بي كإنسان، أشعر بذلك فعلا. لم تقل أو تشر بأنها تريد شيئا ما. هي تريد فقط علاقة إنسانية مع أمثالي، وما أجمل أن أشعر بإنسانيتي أمامها. لم تطلب شيئا، كانت تريد علاقة ما بها، وكنت أنا أريد مثل هذه العلاقة. الشيء الوحيد

الذي طلبته هو أن تزور اليسيرة، وتزور المختار لتتعرف عليه، وتتعرف على أهالي اليسيرة. وعدتها أن أستقبلها يوما ما، لكني لم أستطع أن أفي بذلك.

فكرت كثيرا في السبب الذي يدفع "شوش" لإقامة علاقة معي. هي لا تريد استغلالي ماليا كما يعتقد معظم أهالي اليسيرة وغيرها حول نساء المدينة، وهي تستطيع بقدراتها الفائقة أن تقيم علاقة مع أي شخص تريده أجنبيا كان أم عربيا، ويمكنها أن تعرف عن اليسيرة وما حولها من عدة مصادر غيري، إذ لا اعتقد أن أحدهم يتردد في إقامة علاقة معها إذا استطاع ذلك. أكلت معي، وشربت معي، ونامت معي، فماذا تريد مني! عرفت المدينة منذ صغري، تعلمت فيها، وأعرف الكثيرين فيها، وكنت على وشك أن أمتلك محلا لبيع القماش في المدينة لولا تردد أبي ومن ثم موته. تحدث قبل موته عن الصعوبات التي يعانيها التجار، يحلمون ليل نهار ببضاعتهم، ويظلون على سفر كلما سنحت لهم الفرصة بذلك. نصحني قبل موته أن أعمل في الزراعة والأرض، وأن لا أعمل في التجارة. أراد لي عيشة هنية كما قال، لكن عيني ما زالتا مفتوحتين على المدينة بكل ترفها، وبكل ضجتها، وبكل نسائها. عرفت المدينة، وأهوى ما فيها، بما في ذلك "شوش". أشعر بالمتعة في إقامة علاقة مع أمثالها، فهي تحقق لي المتعة، متعة الحديث التي لم أتعلمها من قبل، ومتعة الطعام، ومتعة الليل والنهار بكل ما فيه. انتقدت؛ بناء على ذلك؛ المعلم الذي تتلمذت على يديه فهو لم يعلمني جوانب المتعة الأخرى كالسهر والحديث، ولكن لا بأس فلقد تعلمتها بنفسي. تجرأت يوما وسألتها: "ما الذي يعجبك في؟" صمتت متعجبة من السؤال، ثم قالت: "أراك مزيجا من أكثر من جهة، فأنت من قرية، وتتردد على المدينة، وعاداتك هي مزيج بين هذه وتلك. أنت لا تشبه مراد، ولكنه يشبهك في بعض النواحي، تعرف أنواع الأكل في المدينة، لكنك تأكل أحيانا مثل قروي. أنت لديك رؤية ما في الحياة، وما شاهدته أنك تحب الاستمتاع، وهذا جيد. وأنت تشبه إلى حد ما مراد، وتشبه الإنجليز أكثر، لذلك لم أجد أن هناك حاجزا للتعرف عليك، وكل يوم أعرفك أكثر". سعدت لهذا الرأي بغض النظر عن صحة ما قالته، فهي عرفت في صفات كثيرة من الصعب علي

أن أعرفها وحدي، ووجدت أن الشخص يستمتع أيضا بالحديث حوله خاصة من واحدة مثل "شوش". لم تطلب مني الزواج، ولم تقترح علي أن أرحل إلى المدينة، وبقيت سعيدا.

*****

لم أتوقع بعد هذه الفترة القصيرة من العلاقة مع "شوش" أن تسألني عن علاقتي ب "شرحة" بهذا التفصيل. سألتني إن كنت قد أعجبت بها قبل الزواج، وعن شكل العلاقة معها، ورأيها هي في الزواج مني. وسألتني عن منافستها البنات الأخريات وقدرتها على الفوز بي. سألتني عن شكل علاقتنا، وعما يعجبني فيها. فوجئت من أسئلتها، فهذه المواضيع تخصني أنا دون غيري، فكيف تسألني عن خصوصياتي الدقيقة هذه! هل اعتقدت أن أي إنسان عاقل يمكنه التحدث عن نفسه في هذه المواضيع! هل اعتقدت أن مجرد تعارفنا كاف لإزالة كل هذه الحواجز! لم أسألها عن علاقاتها، فلماذا تسألني هي! هل كان علي أن أدفع ثمن امتلاكي جسدها هذه المرات القليلة! لم اعتقد ذلك. راحت تسألني عن علاقتي بها قبل الزواج، ولم أجد حرجا كبيرا في ذلك. حدثتها عن القرية، وعن أهلها، وعن المناسبات المختلفة التي يلتقي فيها الصبية ويمارسون ألعابهم، ويرقصون ويغنون، ويعيشون، ويتعرفون على بعضهم بعضا، وعن قدرة "شرحة" الكبيرة على الرقص والغناء ومقارعة الآخرين. توقفت عند عبارة "مقارعة الآخرين"، وأرادت أن أشرح لها أكثر. توقفت أنا الآخر عند هذه العبارة، فالكثير من الجمل كنت أقولها هكذا دون وعي كبير بما تعنيه كل كلمة، لكن "شوش" كانت تريد تفسيرا لها. كنت مضطرا لأن أسرد قصة تبين معاني بعض الكلمات والجمل والعبارات والمصطلحات التي أستعملها بشكل يومي.

لقد بت يوما بعد يوم أكثر وعيا بما أقول، وبت أكثر تفهما لما تسأل، فالحديث في اليسيرة غيره خارجها، الكلمات لا تعني نفس المعاني، والجمل لا تحمل المعنى المقصود، وهكذا صرت وأنا أجالس "شوش" أنظر إلى اليسيرة من

خارجها، وأنظر أيضا إلى نفسي من خارجها. بت شخصا آخر حتى عندما أعود إلى اليسيرة. صرت أشعر بأنني لست ذات الشخص الذي كنته في يوم من الأيام. صرت استمع إلى الأحاديث، وأحاول أن أحللها من وجهة نظر "شوش" أو شخص مثلها، وحين أشاهد تصرفات أهالي اليسيرة والقرى المجاورة أراها من خلال عيون "شوش". صرت استخف بأشياء، واستكبر أشياء كانت بالنسبة لي عادية في يوم من الأيام. صرت أقف عند الكلمات مثلما أقف أيضا عند حركات جسد المتكلم أو المستمع. صرت أدقق في تفاصيل الحدث، كما أدقق في رؤية الحدث ككل، وكأنه مطلوب مني في يوم من الأيام أن أقدم تقريرا جيدا ل "شوش" عن اليسيرة. أثارت "شوش" لدي العديد من الأسئلة حول نفسي: كيف أفكر بما أرى؟ كيف أفكر بنفسي؟ كيف أفكر بما تقوله أو تفعله "شرحة" معي؟ وغيرها من الأسئلة. لقد تعبت كثيرا وأنا ألتقي "شوش"، ففي الوقت نفسه حين كنت استمتع بلقائها، كنت أشعر بأن رأسي يؤلمني. تمنيت لو أني لم أعرفها، وتمنيت لو أني عرفتها من قبل، فالأسئلة التي أثارتها لم أفكر فيها من قبل، و"شوش" تأتي وتقلب أفكاري أعلاها أسفلها. شعرت بأني شخص ممزق. أنا ابن اليسيرة، وابن غيرها في الوقت نفسه. شعرت شعرت بأن لا قيمة للإنسان وهو لا يستطيع الإجابة عن أسئلة توجه إليه. شعرت بأن ما في رأسي كان يجب أن يعمل منذ الصغر حتى يصبح مثل عقل "شوش". "شوش" شوشتني، وأفقدتني اتزاني، لكنها لم تساعدني بصورة جلية للحصول على "قوشان" الأرض.

*****

كنت أتوق لبنات المدينة، كما كنت أتوق للحصول على "قوشان" لأرضي. عرفت الكثيرات منهن قبل تعرفي ب "شوش"، لكن "شوش" عرفتني على غيرهن، وكنت أذهب إليهن. تعرفت على الكثيرات وأنا أتجول في الأسواق، أو وأنا أتردد على المقاهي. كنت أعرف أنني أستطيع جذبهن نحوي، وأنال كل ما أريد. أخذنني إلى أماكن مختلفة، واختليت بهن. كن سعيدات بذلك وكنت أنا الآخر سعيدا، لكن المجموعة التي عرفتها عن طريق "شوش" كن من نوعية مختلفة.

أستطيع القول أنهن بنات عائلات كما يقول أهالي اليسيرة عن أمثالهن. ألاقيهن في الأماكن الراقية أو في بيوتهن، يطلبن مني أن نشرب فنجانا من القهوة، ونتحدث، ونتحدث ونلبي رغباتنا. عرفت أن بعض رجال المدينة اشتكوني ل "الحاج مسعود" ولغيره، وحين واجهوني بشكواهم، قلت لهم أن ترددي على المدينة هو بهدف الحصول على القوشان. تفهموا ذلك، لكنهم لم يتفهموا ترددي على بعض النسوة. قلت لهم أنني ألتقي محامين منهم رجال ومنهم نساء، وهم يساعدونني في إنجاز المعاملات المطلوبة، كما صرت أعرف الكثيرين من أهالي المدينة، ولا أزور بيوتا إلا بدعوة من أهاليها. تفهموا ذلك إلى حد ما، لكنهم أيقنوا كما أوقن أنا أن العلاقات تتجاوز هذه المسألة. هم يعرفون كما يعرف أهالي اليسيرة جميعا أنني أستطيع تجاوز العلاقات الرسمية مع النساء، وهم يعرفون أنني لا أتردد على مواخير أو بنات الهوى، ويعرفون أنني لا أتحرش بصبايا المدينة كما لم أتحرش ببنات اليسيرة، أما وقد أثرت هذه الزوبعة من حولي فتلك قصة أخرى.

عرفتني "شوش" على سعاد الصيداوي المحامية، أصلها من شمال فلسطين، وتسكن وسطها منذ انتقل والدها للعمل مدرسا في المنطقة في أوائل القرن، ثم أصبح مديرا فيما بعد. تعلمت سعاد مهنة المحاماة في فرنسا، عمرها يقارب الأربعين، برونزية البشرة، بدينة بعض الشيء، تتكلم برقة، وتركب جملها من ثلاث لغات هي العربية والإنجليزية والفرنسية. أعجبتني رقتها، وبساطة تعاملها، وتلقائيتها. منذ تعرفت عليها لم تستقبلني كضيف، لم تجلسني في غرفة الضيوف، بل كانت تجلسني في المطبخ أو على شرفة البيت. تقوم بعمل القهوة وهي تتحدث معي ومع الزوار الآخرين، ويمكن أن يقوم أي من الزائرين بتناول طعام مما يجده أمامه، أو يطلب أي شيء يريد. الأمور تجري ببساطة عند سعاد، تكشف لك نفسها منذ اللقاء الأول، وتتعجب لو ترددت في طلب شيء. ممكن أن تطلب منها أي شيء تريد، وممكن أن تلبي لك الطلب إذا كان متوفرا، وممكن أن تقوم بتأجيل تلبيته إلى وقت آخر. تفهمت سعاد أن من الصعب علي استيعاب هذه اللغة المركبة، وكلما أدركت ذلك من خلال ابتسامتي الحائرة أو من خلال عدم

قدرتي على المتابعة، حاولت أن تفسر لي ما تقول بالعربية، ومع الزمن بت أفهم المقصود بشكل عام دون الحاجة إلى ترجمة، واعتبرت ذلك ذكاء مني، وأنا رضيت بذلك. الجنس بالنسبة لها يشبه تماما الرغبة في تناول فنجان قهوة، أو وجبة غداء معا. سألتها مرة عن هذا التشبيه الذي أعتقد به، فقالت عن القهوة: "هناك عدة أنواع منها، النوع الأول هو تناوله مع زبون العمل، فعقد صفقة مع أحدهم يلزمه فنجان قهوة، أما إذا كان الزبون عابرا فممكن أن يتناول فنجان القهوة وحده وإن كان متواجدا في المكتب الذي أعمل فيه. النوع الثاني هو تناول فنجان قهوة وحدي حين أحتاج للتفكير في شيء ما، أو أن لا أفكر بأي شيء. النوع الثالث هو أن أتناوله مع شخص أحبه، وهنا يجب إزالة الفواصل بيني وبينه، أشربه وأنا أجلس على كرسي أو على طرف الشرفة، أو على الأرضية، أو قرب سرير النوم، وهذا يزيل المزيد من الفواصل، ويخلق جوا متعددا من الخيارات حسب مجرى الحديث والمشاعر". سألتها عن أي نوع من القهوة تحب أن تسقيني القهوة، فقالت: "الآن أشرب معك القهوة من النوع الثالث". وكم شربت معها من مثل هذا النوع بأوضاعه المختلفة، ووجدت أنه ممتع، ولا يوجد مثله في اليسيرة حتى مع "شرحة". حاولت مرة أن أقوم بذلك في بيتي، لكن "شرحة" أبدت عدم رغبة في ذلك معللة السبب إنه لا يساعدها في النوم مبكرا، وعرفت أن طعم القهوة في اليسيرة غيره في المدينة، غيره مع سعاد الصيداوي.

*****

أثار ترددي على بيت سعاد كلما زرت المدينة، أو بسبب تقصدي زيارتها العديد من جيرانها، وأثار سكان الشارع الذي أمر فيه. لاحظت امتعاضهم من زياراتي، وفهمت من سعاد أن سبب ضيقهم هو وجودها في هذه المنطقة وفي هذا البيت، فالبيت اشتراه أبوها منذ مجيئه إلى المدينة. لكن محاولتها شراء البيوت المجاورة خاصة القديمة منها أثار حفيظتهم لعدة أسباب منها أن الثمن المدفوع ليس كبيرا مقارنة بشراء أراض حول المدينة، كما أن معظم هذه البيوت تحتوي في ساحاتها على قبور أجدادهم، وحين فاوضتهم لشرائها، اشترطوا بقاء القبور

وزيارتها من فترة لأخرى. اقترحت عليهم نقل رفات الجثث إلى أماكن أخرى، فرفضوا، وتحول الخلاف بينهم حول بيع البيوت إلى خلاف أخلاقي وطبقي، فهم محافظون وهي منفتحة، وهم فقراء وهي غنية، وهم أميون وهي متعلمة. هم شيء وهي شيء آخر، وانصبت مظاهر الخلاف معها إلى الخلاف مع زوارها، وأنا واحد منهم.

كنت ألاحظ، كلما مررت من هناك، وقوف رجال الحي في الطريق وقفة المستعدين للعراك. كنت أمر دون أن أتطلع إلى وجوههم، لكني إذا ما استرقت النظر إلى البيوت أرى عيونا كثيرة تنظر إلي من خلال شبابيك البيوت. لم أعرف إن كانت هذه النظرات تعني رفضي أو الإعجاب بي. مرت الأيام ووجدت أن هذا التلصص ما هو إلا إعجاب بي، فمرات كثيرة سمعت عبارات الغزل والإعجاب، سمعت: "ما أحلاه، سكر، يا بختنا". ومرة دعتني إحداهن لشرب القهوة، لكن قبل أن أشربها فعلا، شاهدت أهالي الحي وقد تجمعوا حول البيت وفي الداخل، وهددوني بالقتل إن رأوني مرة أخرى في تلك المنطقة. رويت الحادثة لسعاد، فهدأت من روعي، وقالت أنهم لا يستطيعون عمل شيء سوى الصراخ، وحتى هذا، تستطيع منعهم منه. فظللت أتردد، وأسمع كلمات الغزل من حولي، وأسمع صراخ الرجال من جهة أخرى. تعايشت مع الوضع، لكنهم في النهاية شكوني لأهالي قريتي.

صارحني "الحاج مسعود" بالأمر، واستدعاني أكثر من وجيه من وجهاء اليسيرة. أخبرتهم بهدفي من مشاويري إلى المدينة، وعلاقتي بمجموعة من المحامين الذين يحاولون مساعدتي، وجاءني "الطبع" مهددا أن أكف عن هذه التصرفات. كل ذلك لم يؤثر في كثيرا، إذ بعد كل شكوى تتحول أسئلتهم إلى تفاصيل ما يحدث مع نساء المدينة وفيها. بدأها "الحاج مسعود" بشكل ثنائي بيني وبينه، وكذلك الآخرون، وتحولت جلساتي معهم إلى نوع من التسلية. سألوني عن كل شيء، وعن أدق التفاصيل، صاروا يدعونني للجلوس في المضافة، يفتحون

السهرة بموضوع ما، ثم ينتقلون للحديث عن نساء المدينة. شعرت بأن الاهتمام بي يزداد وبما يحدث معي، ولم يدنه أي منهم صراحة. كانوا ينظرون إلي نظرة إعجاب، وكانوا يكبرون ما أفعله وهم لا يستطيعون فعل مثله. كانوا ينظرون إلي نظرة من يثأر للظلم الذي لحق بهم، وللمنازعات التي كانت تحدث بين فينة وأخرى، ورغم إدانتهم العلنية لما أفعل، إلا أنني كنت أجد تشجيعا لعمل المزيد، وحسدوني على ذلك. لم تبد "شرحة" امتعاضا كبيرا، سألتني فقط إن كانت الأخبار المتناقلة صحيحة، فلم أوكدها أو أنفها، وقالت: "الرجل مثل الديك، فالديك يدور في الحارات، يلاقي دجاجات الحارة، ثم يعود إلى خمه". لكنها بدأت تسألني عن تفاصيل ما يحدث، وكنت أحدثها كما لو أن الأمر لم يحدث معي. كانت مهتمة بما تفعله النساء في الفراش، وكلما أوحيت لها بشيء كانت تحاول تقليده، لذلك لم أقلق كثيرا من رد فعل "شرحة" عما يجري، وصار هذا الأمر عاديا في اليسيرة، تسمعه على لسان كل كبير وصغير وامرأة وصبية.

كنت وأنا في الطريق إلى المدينة متأكدا أنني سأحصل على القوشان هذا اليوم، فالإجراءات تم استكمالها، ولجنة تسوية الأراضي جاءت إلى اليسيرة وفحصت كل المواقع بما في ذلك تلك التي تخصني. تداولت معهم في الأمر، وسألوني عن أسماء المواقع والأودية والتلال والجبال، وسألوني عن أصحاب الأراضي المجاورة لأرضي، وسألوني عن نبع الماء، وكيفية الانتفاع منه، وعن البيادر، وعن كيفية استعمال الأراضي. كان معظم العمال من العرب، بينما يقف مسؤول أجنبي يحمل خرائط وأوراقا، ويسجل عليها ما أقوله، وكذلك فعل مع الآخرين. أخبرني الأستاذ مراد بأن أعضاء اللجنة أقروا من الناحية المبدئية قانونية ملكيتي للأرض، وبقي عليهم أن يوقعوا في أقرب اجتماع لهم، وأبدى بعضهم رغبة في التعرف علي شخصيا. سألتني "شوش" عن مشاريعي التي أنوي القيام بها بعد حصولي على القوشان، وسألتني عن إمكانية العمل بمشاركة آخرين لزيادة إنتاج الأرض وتصديره، وعرضت علي سعاد إمكانية توكيل أحد الأشخاص لديها لبيع ما أنتجه من محاصيل. هكذا بات القرار صعبا في إمكانات العمل

المستقبلية، لكن كل هذه الأمور لا يمكن البت فيها قبل الحصول على ورقة تثبت ملكيتي للأرض وما فيها وما عليها. الاحتمالات متعددة بما في ذلك أن أصبح غنيا جدا مثل سعاد الصيداوي. كنت أعتقد أنني من الأغنياء، لكن حين رأيت وسمعت ما يجري في المدينة أيقنت أنني غني صغير. صحيح أن ترددي المكثف على المدينة بدأ بشكل أساسي من أجل الأرض، لكن العلاقات التي أقمتها لا يمكن أن تنتهي بحصولي على القوشان، ولذلك لن تتوقف زياراتي إلى المدينة، فلا يمكن أن أنسى المعرفة الكبيرة التي اكتسبتها من خلال ترددي على مكتب الأستاذ، ولا يمكن أن أنسى العلاقات الإنسانية التي أقمتها مع "شوش" وسعاد وغيرها، وربما أستطيع في يوم ما استقبال "شوش" في اليسيرة لترى بعينها "شرحة" و"الظبع" و "الحاج مسعود" وغيرهم.

وصلت المدينة ضحى يوم السبت، توجهت إلى مكتب الأستاذ، فلم أجده، لكنه ترك لي خبرا يقول أن سعاد تريدني لشرب فنجان من القهوة الصباحية كما تحب أن تسميها. لم أتردد في تلبية طلبها، فتوجهت حالا هناك. في الشارع الموصل إلى بيتها كان يقف الرجال كعادتهم على بوابات بيوتهم، وكانوا كالعادة كأنهم متأهبون لمعركة. لم أعرهم انتباها، فليست هذه هي المرة الأولى التي أراهم هكذا وإن كان الوضع مختلفا قليلا. سمعت تعليقات منهم منها: "جاء الداشر، سيكون اليوم يومه، هذا مجرد عميل، ..الخ". لم أتطلع يمنة أو يسرة، فمثل هذه الألفاظ سمعتها من قبل، وما حدث من قبل سيحدث هذا اليوم، فبمجرد اقترابي من بيت سعاد تنتهي التعليقات. عندما قطعت نصف مسافة الشارع، رأيت الرجال يتجمعون حولي من كل جهة، وقبل أن أستطيع التحدث بكلمة واحدة، حملني اثنان منهم أو ثلاثة، وأدخلوني أحد البيوت. ربطوا قطعة قماش حول فمي، وربطوا يدي ورجلي بحبال، وحملوني ثانية عبر زقاق إلى بيت آخر. أغلقوا علي البيت، وذهبوا. شعرت بخوف كبير. كنت أرتجف من الخوف، وتصورت أنهم سيقتلونني في أية لحظة دون أن يدري بي أحد، وتصورت من جهة ثانية أنهم سيجبرونني على الزواج من تلك التي أوشكت أن أشرب فنجان قهوة في بيتها، وتصورت أن

يأتوا بالشرطة فيلقوني في السجن. مر زمن وأنا أعارك الأفكار المتناقضة، إلى أن فتح الباب ثانية، جاء ثلاثة شبان ملثمين، مفتولي العضلات، كل منهم يحمل عصا. لم استطع سوى أن أغمض عيني علني أجد عزلة ما بيني وبين العصي. أحسست بألم الضرب في البداية، لكن جسمي أصبح مخدرا، وصحوت وماء ينسكب فوق رأسي وجسدي. تجمع رجال ونساء من حولي، ولم استطع تمييز سوى بعض الكلمات التي قالوها: "اقتلوه .. ربنا سيحاسبه .. متعاون". وسمعت كلمات أخرى: "يهود، إنجليز، عملاء". لم أكن أملك قوة للرد أو مناقشتهم، ووكلت أمري لله، على أمل أن تأتي سعاد برجالها وتنقذني، لكنها لم تأت.

صحوت في اليوم التالي على أصوات الأبقار وهم يخرجونها إلى المرعى. كانت الرائحة خانقة، وكانت ملابسي قد تلوثت من كل اتجاه. حتى فمي ورأسي وكافة أنحاء جسدي كانت ملوثة هي الأخرى. جاءوني ببعض الخبز والجبن. لم آكل، ولم أستطع ذلك. كان جسدي منهكا ولا أقدر على عمل شيء. صحوت مرة أخرى على صوت فتيات، وسمعت صوت بكاء، فصرخ فيهن أحد الرجال، وخرجن. جاء رجل يحمل فنجانا من الشاي، قال لي اشرب. شعرت بالرغبة في شرب شيء ساخن، وفرحت لكأس الشاي. حاولت أن أعدل من جلستي، ولم أقو على ذلك، ويداي مربوطتان إلى الخلف، ورجلاي تشدهما الحبال. شربت بمساعدة الرجل. كنت أود أن تطول طقوس شرب الشاي، لكنه كان يجبرني أن أشرب ذلك بسرعة، شعرت بالنعاس ونمت. صحوت فوجدت نفسي عاريا تماما، وألم شديد في مؤخرتي. لم استطع الجلوس، وعرفت أنهم فعلوها معي، بكيت دون فائدة. بكيت من الألم، وبكيت من الحالة التي وصلتها.

بقيت بين حالة الصحو والنوم. بقيت بين حالة شبه اليقظة والأحلام فترة طويلة من الزمن. كانت الأيام تمر دون أن أشعر بعددها. كانت الأبقار هي المؤشر الوحيد على أن يوما ذهب، ويوما سيأتي، وعادت رائحة روثها بالنسبة لي شيئا عاديا. تمنيت فقط أن أصحو وأستطيع التفكير بالحالة التي أنا فيها. كان في

طرف ما من الزريبة إبريق ماء، وبعض الخبز، وحين لا تكون هناك أبقار أحبو نحوها وأقضم أو أشرب شيئا منها. فكرت في استغلال وجود الأبقار لأشرب حليبا منها مباشرة. حاولت ذلك مرة، اقتربت من بقرة تبدو حلوبا. حبوت تحتها، وكما تفعل العجول، اقتربت برأسي من ثديها، فانتفضت، ورفصتني، وداست على بطني، ولم أكرر مثل هذه المحاولة، واكتفيت بالخبز الجاف في طرف الزريبة. حلمت بأشياء كثيرة كنت أظنها تحدث حقيقة، حلمت ب "شرحة"، وهي تجلسني على فراش جديد لم استخدمه من قبل، وتأتي بالأكل والشراب وتضعه أمامي، ونأكل سوية، ثم نخرج لنتمشى في الجبال، ونطير مع العصافير. حلمت أنني أسبح في بركة النبع، والماء يترقرق من المرتفع، وخريره يطربني، والناس ترقص وتغني حوله، فحملت نفسي ورقصت بينهم عاريا، ورقصوا حولي، وألبسوني ما حلا ونظف من الثياب، وحملوني على أكتافهم إلى البيت، فنمت. حلمت بسعاد وهي تسافر معي عبر البحر إلى فرنسا، وأنا ألبس طاقية مثلهم، ويتكلمون الفرنسية وأنا أتكلم مثلهم. حلمت ب "شوش" تنقلني إلى البلاد التي جاءت منها، إلى جبال لم يمسسها أحد، وإلى أودية لم أر مثلها، وإلى عالم لم تطأه قدماي. جاءتني الكوابيس واحدا اثر آخر: صحوت على صراخ "الظبع" وهو يحمل عصاه ويهوي بها على رأسي، فسقطت في بئر عميق، و"الظبع" يلاحقني بصراخه وعصاه. هربت، فارتطمت بالماء، وصحوت على ثور يبول على رأسي. صرخت، فتخلصت من كابوس صوت عمال المحاجر، يحمل كل منهم مطرقة كبيرة في يده. وضعوني فوق صخرة عالية يراها كل مارق طريق، طرقوا رأسي، فتحطم وتناثرت شظاياه في كل ناحية، عملوا على جمعه مرة أخرى، وبدأوا يطرقون كما فعلوا من قبل. صحوت على صوت نساء وهن يمسكن بأيديهن عصيا طويلة وغليظة، ويفعلن بي كما لو كن رجالا.

صحوت ونمت. تألمت، وعانيت، وأنا أنام في الزريبة. مرت الأيام بعدد المرات التي خرجت فيها الأبقار ودخلت، وجاء رجال حملوني، ووضعوني بين كومة من التبن على عربة يجرها بغل. ساروا مسافة طويلة. كنت كأني متوجه

للقاء ربي يوم الحشر، أراجع هذه الحياة التي عشتها، وهذه النهاية التي انتهيت إليها، وجسدي يميل يمينا ويسارا مع الطريق. فكرت بكل الاحتمالات التي من الممكن أن تحدث معي. فكرت بأنهم سيطلقون رصاصة في جبهتي وأموت، وفضلت ذلك. فكرت أن يلقوا بي في وادي الضباع لتأتي في الليل وتنهش جسدي وأنا حي، ورضيت بذلك. فكرت بأنهم يلقونني عند بوابة بيت سعاد، فتأتي وتأخذني، خجلت من نفسي قليلا، لكني قبلت ذلك. فكرت باحتمالات مختلفة، لكن العربة توقفت، وصرت أميز صوت الفلاحين وهم يغنون في حقولهم، فإذا بالرجال يلقون بي على تلة، ويذهبون بعيدا. حاولت أن استريح، لكني شاهدت أشخاصا حولي، وكما يوم القيامة سمعت نداءات تتردد بين الفينة والأخرى: "شهاب عاد .. عاد شهاب".

(٤)

كلما غاب أمرؤ عن اليسيرة وقتا، عرف به كل أهالي القرية، وظلوا بانتظاره إلى أن يعود. وكثيرا ما كانوا يطلبون من "الخاطر"؛ كما كانوا يسمونه؛ إحضار غرض ما من المدينة أو من القرية المتوجه إليها، ففي حال ذهابه إلى المدينة كانوا يطلبون منه أن يشتري لهم كعكا أو حلوى أو أي غرض آخر، وفي بعض الأحيان يطلبون منه أن يقوم بختم إحدى الأوراق أو التأكد من انتهاء معاملة ما خاصة بالأرض أو بغيرها. وفي حال ذهابه إلى قرية مجاورة كانوا يطلبون منه أن يسأل عن دين سابق أو عن مدى توفر أبقار وماعز للبيع.

في صباح يوم السبت من حزيران، وبعد أن صلى الناس صلاة الفجر، كان شهاب يقف على الطريق في انتظار الحافلة المتوجهة إلى المدينة. كانت هذه الحافلة تنقل المسافرين من مجموعة القرى الشرقية للمدينة والواقعة على خط واحد، وكانت اليسيرة هي آخر هذه القرى بسبب قربها من المدينة. كان الأغنياء فقط هم الذين يستقلون الحافلة في الغالب، فالمدينة قريبة نسبيا، والوصول إلى طرفها على ظهر دابة عبر طريق ترابي مختصر لا يستغرق أكثر من ساعة، بينما يستغرق الوصول إلى سوقها ساعة ونصف الساعة تقريبا. جاءت الحافلة، ووقف عدة صبية على طرف الشارع يصيحون فرحا وهم يرون الحافلة تمر وتتوقف ليركبها شهاب، وكان عدة رجال يقفون مع شهاب ويطلبون منه بأعلى أصواتهم أن لا ينسى تلبية أغراضهم، وتمنوا له التوفيق في مهمته.

راحت الحافلة وأخذت شهاب، وتحدث الناس في اليسيرة عن الوليمة التي سيقيمها بعد عودته ب "القوشان" الموعود. وعدهم في الليلة السابقة، وهم يسهرون في علية المختار، أن يقيم لهم وليمة غداء كما جرت العادة إذا ما أحضر القوشان.

اختلفوا قليلا حول إن كان سيطعمهم لحم عجل أو ماعز، ووعدهم أن يفعل ما يرغبون فيه، وانصرفت أحاديثهم إلى المدينة وطباع أهلها، ثم تحولت إلى صفات بناتها وما يفعله معهن، حتى أن العديد من المشاركين اقترح عليه أن يحضر لهم بنات من المدينة كهدية بدل الوليمة. ضحكوا كثيرا، وتندروا كثيرا، ومضت الليلة قصيرة يملؤها الحديث الجاد حينا والمسلي أحيانا. في تلك الليلة، وقبل انتصاف الليل، سأل "الحاج مسعود" شهاب قائلا: "ألا تريد أن تذهب عند "شرحة" وتودعها؟"، فقال: "نعم، لكني اكتشفت اليوم أن هناك متعة أخرى لم أعرفها من قبل، لم أتعلمها في المدينة، ولم أتعلمها من معلمي القديم". قالوا جميعا: "وما هي يا شهاب؟"، فقال: "مجالسة الرجال". صمت الجالسون قليلا من هذه المفاجأة التي تفوه بها، وهزوا رؤوسهم كمن يكتشفون شيئا جديدا، يمارسونه كل يوم ولا يستطيعون تحديده إلى أن جاء شهاب وصرح به.

مضت ساعات يوم السبت ساعة وراء ساعة، والناس في حقولهم، يحصدون مزروعاتهم من قمح وذرة وشعير وعدس وغيره، أو يقطفون ثمار أشجار مزروعاتهم من لوبياء وطماطم وخيار وغيرها. جاءت الحافلة ظهرا، وتراكض الصبية نحوها كالعادة، وجاءت "شرحة" وبعض الرجال يستقبلون شهاب ويستطلعون منه الخبر، لكن الحافلة لم تتوقف، ولم يكن شهاب فيها، إذ لو كان فيها لنزل. توقعوا أن يكون قد تأخر في الحصول على المعاملة فانتظروا أن يأتي في حافلة أخرى أو ربما مشيا على الأقدام إذا اقتضت الضرورة ذلك. انتظروا حتى المساء، فلم يأت، وانتظروا حتى منتصف الليل ولم يأت. لم تستطع "شرحة" أن تنام ليلتها متوقعة قدوم شهاب في أية لحظة، سهرت عندها نساء القرية، وتحدثن في أمور كثيرة منها الصعوبات في الحصول على "قوشان" الأرض، وواسينها بمقولة أن "الغائب حجته معه". أما رجال القرية فتحدثوا عن احتمال تأجيل دائرة الأراضي الأمر لليوم التالي، وبالتالي وجدها شهاب فرصة لوداع بنات المدينة.

في صباح يوم الأحد من حزيران، جاء رجل من قرية مجاورة، وأخبر "الحاج مسعود" باحتمال اختطاف شهاب من قبل رجال من المدينة. قال أنه كان في مكتب الأستاذ مراد، وسمع خبرا يوحي بذلك، بل أن هناك بعض الخدم في أحد بيوت زبائن الأستاذ أكدوا الخبر، وقال أن المحامين في مكتب الأستاذ يحاولون التوسط للإفراج عنه. قام "الحاج مسعود" من فوره بدعوة رجال اليسيرة، وأخبرهم بالأمر. أبدى الحضور انزعاجا مما حدث، وطالبوا المختار بالذهاب فورا إلى المدينة والسؤال عنه. حين عاد "الحاج مسعود" مساء، كان كل أهالي اليسيرة قد علموا بالخبر. تجمعوا في المضافة للاستفسار عن شهاب، فأعلن الحاج أن شهاب ربما سيعود في الغد، وطمأنهم أن لا يقلقهم الحدث كثيرا، لكن الرجال لم يغادروا المكان، سهروا في نفس المكان الذي سهر فيه شهاب الليلة قبل الماضية، وأوحى "الحاج مسعود" أن رجال المدينة قاموا بالفعل بخطف شهاب، ويريدون أن يربوه على حد قولهم في محاولة للحفاظ على شرفهم وسمعة بناتهم. أخبروه أن الكيل قد طفح، وأن كل الوساطات السابقة لم تجد نفعا، ولذلك لن يفلتوه، وقال أن الأستاذ مراد يحاول هو ومحامون مثله الإفراج عنه. غضب الحاضرون، واقترحوا أن يحملوا عصيهم، ويذهبوا فورا إلى المدينة، لكن "الحاج مسعود" عمل على تهدئتهم وأخبرهم أن مكان شهاب غير معروف، ولا بد من التريث قليلا، وهكذا انتهت الليلة بشعور يملأه الأمل والغضب والحزن والترقب.

مر يوم الاثنين والناس في اليسيرة تعيش حالة وجوم. ذهب معظم أهالي اليسيرة إلى حقولهم كالعادة، لكن شهاب واختطافه كان هو الموضوع الذي يشغل بالهم أثناء العمل. عند الظهيرة قامت "شرحة" بالذهاب إلى الشيخ علّه يدعو الله ليعيد شهاب سالما، ففعل. وذهبت إلى "قظيعة" لتقرأ بختها، وفعلت. قرأت فيه أن خطرا يتهدد شهاب، فحملت "شرحة" كأسا من الزيت وذهبت صوب كثة اليسيرة، وهناك في الزاوية، أوقدت الزيت، ودعت ستنا اليسيرة أن تساعد في الإفراج عن شهاب، وصلت كثيرا، ودعت إلى الله أن يفك أسره. ظلت هناك حتى مغيب الشمس، وحتى سمعت أوراق الأشجار تتحرك ويلعب بها الهواء، فأدركت أن

زوجها راجع لا محالة. في الطريق إلى البلدة، ورغم الراحة النفسية التي عاشتها بعد تلاطم أوراق أشجار اليسيرة، قررت الذهاب إلى "الظبع"، وسردت قصة غياب شهاب كما لو أنه لم يسمع بها من قبل. استمع إليها جيدا، وهو يفكر فيما يمكن أن يفعله. استمع إليها وهو يشعر بالإهانة التي وجهت إليه وإلى أهالي اليسيرة جراء تجرؤ أهالي المدينة على خطف رجل من القرية التي ينتمي إليها. أبدى غضبه ووعد أن يفعل شيئا من أجله ومن أجل قريته.

ظل "الظبع" وحده يفكر في هذا الأمر، فاختطاف شهاب واختفاؤه لهذه الفترة يمس باليسيرة وبأهلها، وهو لم يؤذ أحدا من قبل. كان همه المتعة. لم يشارك في الثورة كما لم يشارك أبوه من قبل. كان شهاب يمثل جمال القرية، ولم يمثل عنفها وعفتها. عشقته فتيات القرية، كان يلعب معهن وهو صغير، لكن لم تسجل حادثة واحدة تثبت أنه أساء لإحداهن أو ارتكب فاحشة تسببت في فضيحة امرأة أو فتاة، وفي النهاية تزوج من "شرحة". عشقته كل نساء القرية، لكنه لم يمس سمعة إحداهن أمام الناس. غار رجال القرية من جماله، وتمنوا أن يمتلكوا شيئا منه، لكن كل واحد اعتد بما يقوم به، ولم تصل هذه الغيرة حد التشفي به أو الانتقام منه. تزوج من "شرحة" رغم "دعبرتها" و "شحبرتها"، وتندر الناس من هذا الزواج، وبات اسم "شرحة" مرتبطا بشهاب، وباتت شخصيتها مرتبطة بشخصيته. لا يعرف إن كان شهاب قد ذهب فعلا لإحضار "القوشان" من المدينة أم لا، فكل واحد من القرية أراد "قوشانا" لأرضه. ربما الغنى الذي عاشه شهاب هو الذي ساعده على الإقدام على إنجاز هذه المعاملة، فالآخرون لم يستطيعوا تسجيل أراضيهم. قال "الظبع" في نفسه أن شهاب ليس هو الوجه الحقيقي لليسيرة، بل هو وجه جمالها أمام المدينة وأمام أهالي القرى الأخرى، هو مغامر في هذا الجانب، لكنه ذهب إلى المدينة للحصول على "القوشان". هذا هو السبب المعلن الذي ردده أهالي اليسيرة، وعرفه أهالي القرى الأخرى، وبغض النظر عما في نفسه، فإن معاملة "القوشان" أجبرت أهالي اليسيرة على الدفاع عن قضيته. فكر في مختلف

الأشياء المرتبطة بحياة شهاب، وبرحلته إلى المدينة، تنفس بصعوبة، وقرر أن يفعل شيئا.

تجمع الشباب حول "الظبع"، ووعدوا بمؤازرته، وولوه قيادتهم من جديد. انتشى نتيجة تجديد بيعتهم له. تذكر السطوة التي احتلها أمام أهالي اليسيرة، تذكر مواجهته الضباع في الفيافي وتغلبه عليها. تذكر سطوته على المختار وإجباره على الخضوع له عند زواجه من "مظوية" أخت المختار. تذكر المكانة التي احتلها عندما طارده الإنجليز وطاردهم. تذكر يوم حاولوا محاضرته، فأفلت عليهم الأفاعي، وقادهم نحو المصيدة التي نصبها لهم، فوقعوا في البئر وماتوا. تذكر يوم عاد إلى اليسيرة وهو يجر العربيد الذي عضه في لحم كعبه، ولم يشعر به إلا عندما نبهه الناس، فشده لتتكسر أسنانه، ولاحقه الصبية حتى قتلوه. تذكر يوم واجه أهالي القرى المجاورة ومنع بيع الأرض لغرباء. تذكر يوم كان يوقف أية حافلة وهو يبحث عن العملاء. تذكر يوم كان هو أحد رموز الثورة، يدرب المتطوعين، ويجمع تبرعات للثوار. تذكر كل ذلك، وقرر أن يواجه. حاول "الحاج مسعود" ثنيه عن ذلك، ووعده أن يقابل رجال المدينة في الغد، لكن "الظبع" ظل مصرا على المواجهة.

في صبيحة يوم الثلاثاء، قام "الظبع" والشباب من حوله بسد الشارع المؤدي إلى المدينة. قاموا باعتراض كل عربة تمر باتجاه المدينة أو تخرج منها، وقاموا بالتحقق من هوية كل منهم عبر الحديث معهم وسؤالهم عن أسمائهم الكاملة. كانوا يسمحون لغير أبناء المدينة بالمرور، أما المسافرون من أهالي المدينة فقاموا بتهديدهم وإرجاع عرباتهم من حيث أتت حتى يفرج عن شهاب. تعرف "الظبع" على كثيرين منهم خاصة التجار الذين كانوا يترددون من قبل على اليسيرة وعلى القرى المجاورة. هددهم، وطالبهم بالعمل على إطلاق سراح شهاب فورا. وصل الخبر أهالي المدينة، فجاء وجهاء منها، واجتمعوا مع "الحاج مسعود" وباقي وجهاء اليسيرة. أنكر العديد منهم أن يكونوا على معرفة بتفاصيل ما حدث،

ووعدوا أن يستقصوا الأمر في كل الأنحاء، وفي حال معرفتهم مكان وجوده لن يبقوه لحظة واحدة. أكد "الظبع" أن شهاب في المدينة، وهدد أنه سيسد الطرق الأخرى إذا لم يفرج عنه حتى صباح الغد، لكن الوجهاء طلبوا مهلة أطول، ووافق "الحاج مسعود" أن يكون الموعد النهائي صباح يوم الجمعة.

في يوم الأربعاء، جاء الأستاذ مراد و"شوش" وسعاد إلى اليسيرة. أوقف "الظبع" عربتهم عند الحاجز الذي نصبه في الطريق، وسألهم عن وجهتهم، فأخبروه أنها اليسيرة. سألهم عن المكان الذي جاءوا منه، فأخبروه، فطلب منهم أن يعودوا من حيث أتوا، لكنهم أخبروه أنهم ليسوا من هذه المدينة أصلا، وأنهم أصدقاء شهاب. أدرك "الظبع" بطريقة ما أن هؤلاء هم الذين يزورهم شهاب في المدينة. لفت انتباهه الرقة التي يتعامل بها الأستاذ أثناء حديثه، وجذب انتباهه هذا الجمال الذي تتمتع به كل من "شوش" وسعاد، وتمنى للحظة لو أن شهاب كان قد اصطحبه معه. كاد ينادي كل أهالي اليسيرة ليروا بأعينهم أصدقاء شهاب الذي غاب منذ أيام. كاد يعذره لزياراته المتكررة إلى المدينة، ولكن الموقف ألزمه أن يتصرف بشكل آخر، فالشباب من حوله كادوا هم الآخرون ينسون الغرض الذي سدوا من أجله الشارع. لاحظ ذلك من خلال نظرات عيونهم وتحركاتهم ووشوشاتهم، فقطب حاجبيه والتفت نحو الشباب، وقال بصوت عال: "ما في دخول إلى اليسيرة". نزلت "شوش"، وخطت نحوه، وقالت: "أنت "الظبع"". فاجأته "شوش" بما قالت. صمت برهة، وقال وهو يمسك عصاه جيدا: "أنا "الظبع"، شو طلبك؟" قالت: "حدثني شهاب عنك كثيرا". قال مستغربا: "شو عرفت عني؟" قالت: "أنت شهم". صمت قليلا وهو يسترد أنفاسه، وقال: "شو هو غرضك؟". اقتربت منه وقالت: "أريد أن أرى شرحة". سأل باندهاش: "هل تعرفينها؟" قالت: "نعم، حدثني شهاب عنها".

جاءت "شرحة"، وتعرفت على الضيوف، وتحدثوا عن اختطاف شهاب الذي ذهب لإحضار القوشان ولم يعد. كانت "شرحة" في وضع يصعب فيه وصف

مشاعرها تجاه هؤلاء الزوار، فهل تقوم باستضافتهم كما يفرض عليها الواجب، أم ترفضهم خاصة سعاد و"شوش" اللواتي ربما تردد شهاب على بيوتهن وعاشروهن! هل تفتح لهن صدرها وما يجول فيه، أم تعاملهن كأنهن ضرتين لها! تخيلت لفترة أن هؤلاء هم المحامون الذي يساعدون شهاب في الحصول على القوشان، وكادت تسألهم عن المعاملة، لكنها تراجعت لعدم تأكدها من معرفتهم بكافة التفاصيل، فشهاب لم يذكر لها أسماء، وما هؤلاء إلا محامين وحسب. تخيلت لفترة أخرى أن هؤلاء هم الذين ضللوا شهاب، وأن شهاب امتلك جسدي هاتين المرأتين كما امتلك جسدها، وتخيلت أن هذا الأستاذ ليس أكثر من قواد لا يستحق الاحترام خاصة بالنعومة التي يحرك بها جسده، وبالرقة التي يلفظ بها الكلمات. لم تستطع أن تقرر الرجوع إلى بيتها، أو البقاء مع الضيوف. مرت حوالي الساعة فإذا بكثير من أهالي اليسيرة يأتون ويتجمعون حول الزائرين الجدد، منهم من أحضر معه شايا أو لبنا. اعتقدوا في البداية أنهم من لجنة تسوية الأراضي، لكن الأمور كانت تتضح فور وصولهم الجمع. استطاعت "شوش" وسعاد والأستاذ التعرف على الكثيرين من أهالي اليسيرة وما جاورها من خلال هذه الزيارة على أطراف القرية، وأدركوا أنهم لا يستطيعون المكوث أكثر في هذا الجمع، لكنهم وعدوا أن يبلغوا الشرطة للإفراج عن شهاب، وأكدوا أن غيابه لن يطول.

في المساء، جاءت دورية من الجيش. استقبلهم "الحاج مسعود" في عليته، ودعا وجهاء القرية بناء على طلبهم، وطلبوا "الظبع" و "الواوي" أيضا. استمعوا إلى رواية وجهاء اليسيرة حول عملية الاختطاف ومن ثم احتجاز شهاب. وعد قائد الدورية أن يفعل كل ما في وسعه من أجل الإفراج عنه، وطلب أن يرى أم شهاب. أوشك "الحاج مسعود" أن يرسل في طلبها لولا تدخل "الظبع" الذي رفض أن يتجاوز أهالي اليسيرة تقاليدهم وعاداتهم. وقف وسط المضافة وهو يمسك عصاه، وقال: "أم شهاب، هي بنت اليسيرة في النهاية، ونحن رجالها، تحدثوا معنا، ونحن نقوم باللازم". ارتبك قائد الكتيبة مما سمع، وكاد يأمر بإلقاء القبض عليه لولا أن مساعدا له رجاه أن لا يفعل. ظل "الظبع" واقفا في المضافة، وقال: "أنتم جئتم من

أجل مقابلة الرجال، نحن الرجال، على الواوي أن يرحل". وتوجه نحو "الواوي" قائلا: "قم من هنا، مكانك مش بيننا". احتد صوت "الظبع"، وصار يتملك الكلمات الخارجة من بين شفتيه، وتوجه ثانية نحو الضابط، وقال: "هذا الواوي تقدرون على مقابلته في أي مكان، لكن ليس في اليسيرة". أذعن "الواوي" لطلب "الظبع"، وخرج على الفور دون أن يحرك شفتيه. طلب "الحاج مسعود" من "الظبع" أن يجلس فجلس. نهض الضابط، وقال ل "الظبع": "سمعت أنك تغلق الطريق إلى المدينة، إذا رأيناك هناك بعد اليوم، سنعرف كيف نتصرف معك، والحكومة ستكون في انتظارك". هب الرجال الآخرون واقفين، ووقف "الحاج مسعود" وقال: "هذه أيضا من عادات اليسيرة، تستطيعون أن تمنعوا الثوار من الدخول إلى اليسيرة، تستطيعون أن تجمعوا السلاح، تستطيعون أن تعتقلوا الذي تريدون، ولكن لن تستطيعوا إذلال أهلها أمام القرى الأخرى وأمام المدينة". حين خرجوا لحقهم المختار، وتحدث معهم بضرورة عدم اعتراض الشباب على الشارع الرئيسي، فالأمر يتعلق بالدفاع عن كرامة اليسيرة وعزتها أمام أهاليها أولا، وأمام القرى الأقل منها سطوة ثانيا، وأخبرهم بالوعد الذي تلقوه من وجهاء المدينة، وطمأنهم أن الأمر لن يستمر بعد يوم الخميس.

في يوم الخميس من حزيران، شدد "الظبع" والشباب من حوله الرقابة على الطريق، وأرجع كل العربات المارة في الاتجاهين. منع أهالي القرى من الوصول إلى المدينة، ومنع أهالي المدينة من الوصول إلى القرى، بل وأنزل كل الذين عرفهم من المدينة، واستجوبهم، وصرخ فيهم. كان يأخذ الواحد منهم خلف شجرة، ويسأله عن عائلته ونسبه، وعن مدى معرفته بشهاب، وأمر الشباب غير مرة بضرب أي شخص لا يعجبه. احتج كثير من المسافرين على هذا التصرف، فواجههم "الظبع"، وصرخ بأعلى صوته كمن يلقي خطابا: "شهاب ابن اليسيرة يجب أن يعود فورا، لا يفكر أحد منكم أن اليسيرة حيطها واطي. اليسيرة فوق، وستظل فوق، وشهاب يجب أن يعود". وصل الخبر "الحاج مسعود"، فجاء مسرعا. طلب أن يتحدث مع "الظبع" على انفراد. تحدث "الظبع" مع "الحاج مسعود" بكل

صراحة عن مغزى ما يفعله. قال أن هذا هو اليوم الأخير لسد هذا الطريق على المدينة، وجهاء المدينة يعرفون ذلك، والسلطات تعرفه، وفي هذا اليوم يجب أن نفعل كل ما نستطيع القيام به. ربما يفرجون عن شهاب غدا، وعلى أهالي القرى المجاورة أن يعرفوا أن أهالي المدينة أفرجوا عنه مجبرين، أفرجوا عنه لأننا سددنا الطريق على تجارتهم، وضربنا أبناء مدينتهم. هذه معركتنا الأخيرة، هذا هو اليوم الأخير للمعركة، هذا هو ربع الساعة الأخير، وعلينا أن نصمد، وأن نشعر كل الناس بما نفعله، و"اللي مش عاجبه يبلط البحر" بما في ذلك الإنجليز. لنشعر أهالي يسيرتنا، وأهالي القرى المجاورة، وأهالي المدينة أننا نملك قوة، وبغض قوتنا هي ما نفعله.

استمع "الحاج مسعود" جيدا لما قاله "الظبع"، واستوعب الأمر، وصار يهز رأسه بعد أن كان غاضبا في البداية. وضع يده على كتف "الظبع"، وسأله إن كان هناك حاجة لإحضار مزيد من الشباب للانضمام إليه، فأجاب "الظبع" أن لا، فالأمور تجري بشكل جيد وبشكل رمزي تحقق الهدف. أدرك "الحاج مسعود" ما قاله "الظبع"، وقال: "فهمتك يا "ظبع"، أنت بالأصل عسكري، وأنت تتصرف اليوم بشكل سياسي جيد، ستصير وجيها مثلي يا نسيبي". أنكر "الظبع" أن يكون هذا هدفه، وأوضح أن الهدف هو المساعدة في الإفراج عن شهاب. اقترب الاثنان من جمع الشباب، وصار المختار يتقدم الموكب ليوقف العربات، ويخطب فيهم حول تاريخ اليسيرة، وعظمة اليسيرة، وكرامة اليسيرة التي لن يستطيع الآخرون مسها، ويردهم إلى الأماكن التي جاءوا منها. كان "الحاج مسعود" يقطب حاجبيه كلما مر أهالي القرى المجاورة قرب المكان، يحمل عصاه ويحركها في الهواء، ويؤشر بيده الأخرى وهو يهدد حينا، ويؤكد على أهمية اليسيرة وطول باع أهلها إذا حاول أحد المس بها حينا آخر، وأكد على كل شاب من اليسيرة أن لا يسمح لأحد بالمرور، كما ألقى بعض الأوامر على "الظبع". التفت "الظبع" نحوه بطرف عينه، غمزه الحاج أمام الجمع، وفهم كلاهما اللعبة.

*****

لم يكن حشد أهالي اليسيرة كبيرا عند الحاجز الذي نصبه "الظبع"، كما لم يقض "الحاج مسعود" وقتا طويلا هناك، فعند العصر غادر إلى القرية مرتاح البال مما يفعله "الظبع" وليأخذ قيلولته المعتادة. كان "أبو عمي" يتجول حول "الظبع" وبين الشباب. كان يقترب من كل عربة تمر، يمشي خلف "الظبع"، ويحاول أن يوقفها بنظراته، فإذا بدأ "الظبع" بالتحدث مع السائق والركاب، اقترب "أبو عمي" من مسافرين آخرين، وكأنه يتأكد من هوية كل منهم، يتطلع إلى الواحد حتى يدور بنظره إلى وجهة أخرى، فينتقل إلى الآخر وهكذا. وإذا ما شك "الظبع" بأحدهم وبدأ التحقيق معه، رافقه "أبو عمي"، ووقف خلفه، وسلط نظراته نحوه، وقال: "شهاب راح يجيب القوشان، وبكرة يرجع". فإذا هز المستجوب رأسه موافقا، اقترب منه أكثر وقال: "راح يرجع بكرة". فيجيب: "إن شاء الله". أما إذا لم يحرك ساكنا، فإنه يقترب منه، ويظل يكرر العبارة: "شهاب راح يجيب القوشان". حتى يتلقى إجابة، وكانت الإجابات في العادة: "راح يجيب القوشان، وإن شاء الله سيعود، ما دخلنا نحن! ونحن نريد قواشينا لأرضنا، إحنا واليسيرة واحد، في كل قرية شخص اسمه شهاب أو يشبه شهاب".

كان "الواوي" يحاول الاقتراب من الحاجز الذي نصبه "الظبع". كان يحاول استطلاع الأمر، وكلما رآه "الظبع"، صرخ فيه أن يذهب، فيذهب. وهكذا ظل يدور في الحقول الغربية للقرية، لا يستطيع الاقتراب من "الظبع"، ولا يخطر بباله أن يعود إلى بيته. جاء الشيخ "عبد النبي" من بعيد، فإذا ب "الواوي" يقترب منه مسرعا، وتحدث معه. توقفا برهة، ودعاه الشيخ أن يأتي فيصليا معا، أبدى "الواوي" ضيقه من تعامل "الظبع"، وأقسم أن لا علاقة له بالإنجليز، فتركه وانضم إلى الجمع. كانت العربات قد خفت حركتها على الشارع، وجلس "الظبع" والشباب من حوله تحت أشجار الكينا غير قادرين على الكلام. جلس الشيخ، وقال: "ألا ترون أن الصلاة والدعاء أفضل من كل هذه التصرفات". صمت "الظبع" ولم يعلق على ما قاله الشيخ. حان موعد آذان العصر، فوقف الشيخ "عبد النبي" على صخرة

قريبة، وأذن للصلاة. انضم إليه بعض الحضور وصلوا، ثم عادوا للجلوس تحت الأشجار. سأل "الظبع" الشيخ: "شو رأيك بغياب شهاب؟، شو رأي الدين في حالته؟" قال الشيخ بعد أن حمد الله وصلى على نبيه: "لا نعرف وجهة شهاب تماما، على كل حال إذا جاء ومعه القوشان فهذا جيد، ولكن الأرض هي ملك الله سواء حصل على قوشان أم لا، الأرض وقف لخليل الرحمن عليه السلام، وما القوانين التي يتعامل بها الإنجليز إلا ضد ديننا، ومهما اشتروا هم وغيرهم من الغرباء، فإن هذا لا ينفي أحقية دولة الإسلام بها عاجلا أم آجلا". قال "الظبع": "شايف أنك قاعد تفتي في قضايا الدنيا، والحاج مسعود يقول أن تفتي في الدين وبس". فقال: "وها أنا أفتي في الدين بما يخص الحياة الدنيا والحياة الآخرة". قال "الظبع": "مش خايف من "الحاج مسعود" يقوم بتبديل إمام المسجد بواحد غيرك؟". صمت الشيخ قليلا ثم قال: "لا حول ولا قوة إلا بالله".

جاء المساء وقد انتهت حركة العربات كليا على الطريق، تسامر المجتمعون على طرف الشارع، واسترجعوا القصص التي عايشوها هذا اليوم مع المارة: حين أوقفوا العربات وردوها من حيث أتت، وحين استجوبوا فلانا، وحين ضربوه. استرجعوا تصرف الشباب، وردود فعل أهالي القرى المجاورة، وردود فعل المختار و"الواوي" و"أبو عمي" والشيخ "عبد النبي". كان كل واحد من الحاضرين يتناول القصة الواحدة من جانبه، فيروح يسرد ما فعله وما لاحظه. كان الحاضرون يتلون قصة واحدة بألوان مختلفة، ويكملون ما لم يره الرواة السابقون. كانت القصص كلها تشكل معا رواية الدفاع عن كرامة أهالي اليسيرة. دافعوا عنها على الطريق الواصل إلى المدينة بحجارتهم وعصيهم وبنبرات صوتهم وبأيديهم. كانوا راضين عما فعلوه أمام أنفسهم، وأمام أبنائهم وبناتهم ونسائهم، وأمام أهالي القرى المجاورة، وأيضا أمام بعض أهالي المدينة الذين مروا من هنا. هؤلاء سينقلون القصص معهم إلى أقاربهم ومعارفهم لتصبح قصة جديدة في المدينة، وحين يسمع الوجهاء في المدينة ما يحدث على طريقها، سيأخذون هذه التصرفات على محمل الجد، وسيعملون على إطلاق سراح شهاب. ظلوا هناك حتى سمع

صوت الشيخ "عبد النبي" يرفع أذان صلاة العشاء من جهة الشرق، وسمعت أصوات دوريات الجيش تأتي من الغرب، فانسحبوا نحو القرية مرفوعي الرأس أو أشبه بذلك.

سمع المنسحبون المفعمون بفرحة النصر صوت إطلاق نار، ورأوا عربة عسكرية تنقلب على طرف الشارع. توقفت الدوريات وراح الجنود يطلقون النار نحو أهالي اليسيرة. احتار "الظبع" فيما يمكن أن يفعله، فلقد انقضت الأيام التي كان فيها يحمل سلاحا، ولم يعد يمتلك سوى هذه العصا التي لا تصلح لمثل هذه المواقف. راح الجميع يتفقدون بعضهم بعضا، ليتأكدوا أنهم لم ينسوا أحدا هناك. شكوا أن يكون "أبو عمي" هناك، لكنه كان يتقدمهم في محاولة للوصول إلى القرية أولا. وقف "الظبع" خلف كومة تراب، ولاحظ أن هناك جسدا ملقى في الشارع. تساءل حول جثة هذا الشخص الذي ضحى بحياته، وقلب دورية الجيش، ومات. لم يحتمل هذا المنظر، فأرسل أحدهم أن يأتي بمسدس المختار، وحمل الحجارة، وفعل الآخرون مثله، واستحكموا في انتظار أوامر "الظبع". مر وقت قليل، فإذا بأهالي اليسيرة يأتون أفواجا، يحملون حجارتهم وعصيهم، وجاءت النساء وهي تغني للذي "واجه" دورية الإنجليز، وسقط على الشارع الرئيسي وهو يسد الشارع على أهالي المدينة. جاء "الحاج مسعود" مسرعا، استوضح الأمر بسرعة، وتناقضت التحليلات التي سمعها، فمنهم من قال إن هذا الجسد حاول إيقاف عربة أتت من المدينة، فتم دهسه. ومنهم من قال إنه وقف في وجه دوريات الإنجليز، وتم قتله. ومنهم من شك أنها جثة شهاب، وقد أتت به عربة جاءت من المدينة. توجه "الحاج مسعود" نحو الدورية مباشرة ليتبين الأمر على حقيقته، والرجال متأهبون، والنساء تنقل الحجارة للرجال وتزغرد.

كان الإنجليز يحيطون بالجثة الممددة في الطريق، ويربطون الحبال بالعربة المنقلبة لمحاولة رفعها. نادوا "الحاج مسعود"، وطلبوا منه أن يأتي معهم ليتعرف على الجثة. هلع الحاج حينما سمع كلمة الجثة، ولكنه حين اقترب لم يجد

سوى جثة حمار وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. ضحك وقال: "ميشان حمار، تستنفرون قواتكم، ويستنفر الظبع أهالي اليسيرة!". صرخ فيه قائد الدورية، وحذره من الضحك مرة أخرى، فالأمر ليس سهلا. وطلبوا منه أن يتعرف على الحمار، أمسكوا به، وأشعلوا المصابيح، وأضاءوا بها وجه الحمار. لم يدر الحاج إن كان عليه أن يضحك أو يأخذ الأمر على محمل الجد كما طلبوا منه. فإذا بصوت "الظبع" يعلو ويطلب من الإنجليز أن يفرجوا عن "الحاج مسعود"، وإلا أمر بإطلاق الحجارة. صاح الحاج على "الظبع" أن يهدأ قليلا حتى يتعرف على "الجثة". سأله قائد الدورية: "حمار من هذا". قال: "أظنه حمار أحد الذين يعملون في أرضي". قالوا: "يعني هو حمارك، يجب أخذك إلى مقر التحقيق، ودفع غرامة".

لاحظ "الظبع" الجنود الإنجليز وهم يحاولون إدخال "الحاج مسعود" إلى إحدى العربات العسكرية، فأمر بضرب الحجارة، وسد الطريق من الجهة الثانية. سقطت الحجارة كثيفة قريبة من الجيش. أطلق الجنود بعض الطلقات في الهواء، وقرروا الانسحاب، وترك "الحاج مسعود" وجثة الحمار في الشارع.

تجمع أهالي اليسيرة مرة أخرى عند الشارع، وحين تعرفوا على الحمار، نادى أكثر من شخص أن يدفنوه كما يدفن أي شخص آخر، وطلبوا من الشيخ "عبد النبي" أن يصلي عليه، وأن تقام له جنازة مهيبة. قام "الظبع" بحسم الأمر، وبإلقائه قرب مزبلة البلدة على أن يتم تعويض صاحبه عن ثمنه.

(٥)

حان موعد آذان الظهر، فتسلق الشيخ "عبد النبي" شجرة "السدرة" القريبة. لاحظ ذلك المشاركون بالاستقبال، فهدأت الهتافات شيئا فشيئا، وهدأت خطوات المقبلين وقصرت، وصاح الشيخ: "الله أكبر، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، الله أكبر، لا إله إلا الله". نزل الشيخ عن الشجرة، وأمر المصلين أن يتجمعوا في الشارع العام لأداء الصلاة، في نفس المكان الذي أقام فيه "الظبع" والشباب حاجزا يوم أمس الخميس. انشغل الناس بالتوجه إلى عين الصافي للوضوء، توضأ الرجال في الناحية اليمنى من العين، وتوضأت النساء في الناحية الأخرى، وساعد في انفصال الجنسين في هذه العملية أشجار "العليق" التي تسمح بالاختباء وراءها أو بينها. فعلوا ذلك بأقصى سرعة يستطيعون. فعل ذلك أبناء القرية وضيوفها. فعل ذلك كبار السن وشبابه وصغاره. أما شهاب، وبسبب وضعه الصحي، فقد طلب من زوجته "شرحة" أن تأتيه بإناء ماء، أمسكه الشيخ "عبد النبي"، وصب ماءه على جسده، ابتدأ برأسه وانتهى بقدميه، وهو ممدد على أرض البيادر وتمتم: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله". لفظ الشيخ الشهادتين غير مرة، ورددها شهاب من بعده. أخبر الشيخ "عبد النبي" شهاب أن باستطاعته الصلاة حيث هو، لكنه أصر أن يصلي وراءه مثله مثل غيره. جاء "الظبع". حمل شهاب، ووضعه أمام الناس على الشارع العام حيث وقف الشيخ. صلى الحاضرون ركعتين سنة لله تعالى، وفعل شهاب مثلهم وهو جالس. كان الجمع كبيرا وهو يمتد على أرض الشارع مسافة تزيد على مائة متر. اضطرت السيارات المارة للتوقف في الجهة التي أتت منها، فمنها من عاد، ومنها من نزل ركابها وانضموا إلى المصلين، دار "أبو عمي" حول الجمع وكأنه يحصيهم واحدا واحدا، يتطلع إلى كل منهم دون أن يتفوه بكلمة. دار حول حلقة النساء، فزجرته زوجته "قطيعة"، وابتعد دون أن يعيرها اهتماما. دار حول حلقة الرجال، وتطلع

إلى وجوه الصبية، وتطلع إلى وجوه وجهاء القرى الأخرى واحدا واحدا، ولولا معرفة هؤلاء به لاعتبروا نظراته استفزازا لهم. مشى في الشارع شمالا حيث كان "الواوي" يحتل مكانا على صخرة قريبة، يراقب الناس وهم يديرون ظهورهم له، ومشى في الشارع جنوبا. كان "أبو عمي" إذا لاقى سيارة يتسمر في منتصف الشارع حتى تقف، ويسير نحو السيارة القادمة الأخرى. اقترب من الشيخ، دار حوله، تطلع إليه من تحت إلى فوق يحثه على البدء بالطقوس. اعتلى الشيخ صخرة، أحنى رأسه إلى أسفل، وفرد يديه أمامه وتمتم ببعض الدعاء، أغمض عينيه غير مرة وهو يدعو الله، ثم انتصب ثانية، وخطب خطبة الجمعة. ومما قاله: "روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: "ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذي قبله خير منه"، أيامنا اليوم خير، وأمس خير من اليوم، وقبل ساعة خير من هذه الساعة، والساعة هذه خير من الساعة الآتية حتى تأتي الساعة، والساعة تكون يوم الجمعة عصرا، ربما تكون هذا اليوم، وربما تكون الجمعة القادمة أو التي تليها، والله أعلم. إنما أفعالنا هي ما يتغير فينا، وما العبد إلا بما فعل. اتقوا الله، واجعلوا ساعتكم أفضل من التي مضت، ووقتكم أفضل من وقت آبائكم. وقرأ أبياتا من الشعر، منها:

"الدهر لا يبقى على حالة ... لا بد أن يقبل أو يدبر
فإن تلقاك بمكروهه ... فاصبر فإن الدهر أن تصبر"

وحكى الشيخ عن "نبهان التمار" وكنيته "أبو مقبل" يوم أتته امرأة حسناء تشتري تمرا فقال لها: "هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه"، فذهب بها إلى بيته وضمها إلى نفسه، وقبلها، فقالت له: "اتق الله. فتركها وندم". فأتي النبي ﷺ، فذكر له ذلك، فأنزل الله تعالى: "والذين إذا فعلوا الفاحشة". القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، أما دواؤكم فالاستغفار، وأما داؤكم فالذنوب. إلهنا جئناك من أوزارنا هاربين، ورجعنا إلى بابك طالبين، فارحمنا يا أرحم الراحمين، اللهم تب علينا وعلى سائر العصاة والمذنبين يا رب العالمين".

ظل شهاب هادئا، تململ غير مرة. كان يجلس بصعوبة، ولولا المصلين من حوله، عن يمينه وعن يساره، ومن خلفه لوقع في هذه الجهة أو تلك. كان يمعن النظر في الشيخ وهو يخطب الجمعة، ولم يستطع التطلع إلى اليمين أو إلى اليسار ولم يقصد ذلك. كان باستطاعته رؤية الشيخ أمامه، وكان باستطاعته رؤية "أبو عمي" وهو يدور حول الشيخ أحيانا ويقف بجانبه أحيانا أخرى، وكان باستطاعته رؤية الصبية من ذكور وإناث وهم يتجمعون في الجهة الجنوبية من الحشد، لكنه لم يفعل. نكس رأسه في الأرض غير مرة ليجد عينيه تدققان في شفتي الشيخ وهو يلقي الخطبة. شعر بأن هذه الخطبة خطبته هو دون غيره. استمع إلى كل كلمة قالها الشيخ، واغرورقت عيناه بالدموع، وبكى. انسكبت دموعه بغزارة، وهز رأسه غير مرة. كان الكلام يحاكي قصته بشكل ما، هز رأسه كأنه يقول: "فهمت ما تريد، صدقت يا سيدي الشيخ". وكان الشيخ يدقق النظر فيه من وقت لآخر، موجها الكلام له في أحيان كثيرة. وما أن بدأ الشيخ بالدعاء حتى ردد شهاب مع المصلين: "آمين، آمين، آمين". ردد كلمة آمين غير مرة قبل أن ينهي المصلون من حوله الكلمة مرة واحدة.

ما أن أنهى الشيخ خطبته حتى كان قد تجمع أكثر من ألف مصل، فالمصلون لم يكونوا من أهالي اليسيرة فقط، بل جاءوها من القرى الأخرى المجاورة. جاء كبار السن من رجال ونساء، وجاء الصغار والشباب. امتد المصلون قبل الصلاة مباشرة على طول الشارع مسافة حوالي مائتي متر. اصطف كبار السن في المقدمة، واصطف الشباب والشابات خلفهم، ووقف الصبية في المؤخرة. كان شهاب جالسا خلف الإمام مباشرة. طلب من الشيخ رخصة بأن يصلي جالسا، فأذن له. كان يحاول أن يقرأ الفاتحة غير مرة في كل ركعة، ويسبح بالله العظيم، ويسبح بالله الأعلى كثيرا في كل ركوع وسجود، وكأنه يريد أن يصلي غير مرة دفعة واحدة، يريد أن يقضي ما فاته من صلاة. يريد أن يدخل في الدين وقد فاته قطار الحياة والاستمتاع بها. أنهى الشيخ الصلاة، ولم يقم شهاب من

مكانه، بل رفع يديه إلى السماء، ودعا إلى الله. أغمض عينيه ودعا إلى الله. ودون أن يفهم الحاضرون ما قال، رفعوا أيديهم هم الآخرون، ودعوا إلى الله، ورددوا من بعده: "آمين .. أمين .. أمين".

*****

وقف "الحاج مسعود" على صخرة مرتفعة بعض الشيء، وصاح في الجموع: "اليوم ستتناولون الغداء في ساحة اليسيرة أمام علية المرحوم "أبو مسعود"". صاح فيهم وكأنه يأمرهم أمرا، فردد الناس قولهم: "الله يرحمه". منهم من قالها بشكل جدي، ومنهم من قالها مجاملة أو استهزاء به وبأبيه. وقف "الظبع" على الصخرة بجانبه، وقال بصوت عال: "الحمد لله أن شهاب عاد، وسنمشي جميعنا وراءه". جاء "الظبع" بفرسه، تلك الفرس ذات اللون الحنائي والظهر العريض، والتي يستطيع الراكب أن ينام فوقها دون أن يسقط أرضا. اقترب بها نحو شهاب، وأوقفها. حمل شهاب وأجلسه فوقها. لم يستطع شهاب أن يركب الفرس تماما، انبطح على بطنه، أمسك بعنقها، ووضع رأسه جهة اليسار، واسترخى تماما. تأوه من الإعياء الذي أصابه نتيجة أسره وما فعلوه به في هذا الغياب، ونتيجة لهذا الاحتفال الذي طال. أمسك به الشباب من كل جانب، وأمسك بلجام الفرس شاب صغير. صاح "الظبع" بفرقة الكشافة أن تصطف بانتظام في المقدمة، وأن تدق الطبول. اصطفت النساء حول الفرس، ورحن يغنين، ومشى الرجال في الخلف.

دقت الطبول، وانطلقت المسيرة، وانتظمت الخطوات. غنت النساء وهي تزف شهاب المستلقي على ظهر الفرس، والمستسلم لهذا التيار الجارف من الناس. سار الرجال وراءهن وهم في حيرة مما يجري، فلقد جاءوا لاستقبال بطل من أبطال بلدتهم، وها هم أبناء القرى المجاورة يشاركونهم هذه المناسبة السعيدة، وفرقة كشافة القرية تدق طبولها وتعلو أصوات مزاميرها، ونساء القرية يزففن شهاب للمرة الثانية في حياته. هذا الشهاب الذي أثر في كل أهالي القرية منذ

صغره، أثر في الكبار والصغار. غاب شهاب أسبوعا وها هو اليوم يعود، والقرية تستقبله كما يليق به. خطفته يد المدينة يوم ذهب لاستلام القوشان من دائرة الأراضي في المدينة، وبعد تهديد ووعيد من أهالي القرية أطلقوا سراحه. تم اختطاف شهاب بعد أن تردد على بيوت بعض الفتيات في المدينة، وبعد أن تردد على صباياها في المزارع وفي البيارات. يعرف الجميع السبب الذي اختطف شهاب من أجله، إنه زير نساء، والنساء تعشق شهاب، والصبايا تعشق شهاب، والكل يعشق شهاب. لم يحتمل أهالي المدينة ما يفعله شهاب، لقد شكل حالة رعب في المدينة. خشوا أن تراه نساؤهم فيعشقنه، ويراودنه عن أنفسهن، وربما فعلن. خشوا أن تراه بناتهم، ويراودنه هن الأخريات عن أنفسهن، وربما فعلن. كان شهاب يرى بشكل مستمر في المدينة. كان يركب حصانه أحيانا، ويرتدي أحسن اللباس، ويسبل شعره الأشقر، ويطوف المدينة. ارتاد كل المواقع، أكل في هذا المطعم، وشرب شايا في هذا المقهى، وارتاد بيوتا كان يقدم فيها الخمر. استقبلته النساء والصبايا في أكثر من بيت، أطعمنه وسقينه. سهر هناك، ونام هناك، وفعل أشياء وأشياء أخرى هناك.

شهاب ابن اليسيرة، وأهالي اليسيرة يدافعون عن الظالم كما يدافعون عن المظلوم. اشتكوه غير مرة لمخاتير القرية، اشتكوه ل "الحاج مسعود"، واشتكوه ل "الظبع"، واشتكوه لكل مارق طريق من أهالي قريته لكن دون نتيجة واضحة. لم تجد شكاواهم نفعا، فلم تصده عن فعل ما يحلو له، وظل يزور المدينة ويتبختر في شوارعها، وظل يرتاد البيوت المشبوهة. ازداد عدد البيوت التي يدخلها من يوم لآخر، ولهذا شكل حالة الرعب في المدينة خاصة من المحافظين منهم. أثار قدوم شهاب إلى المدينة كل أهلها، واعتبر أهالي اليسيرة تصرفات شهاب إحدى بطولات أبناء القرية. إنه شهاب الذين يخترق المدينة فيما يعتبرونه عيبا لو حدث في القرية، لا يقبلون أن يفعل ذلك مع بناتهم أو نسائهم، ولكنهم يقبلون أن يحدث ذلك في المدينة. أصبح رمز قوتهم بمعنى من المعاني، فإذا كان "الظبع" يمتلك تلك القوة البدنية والشجاعة لمواجهة أكبر رجال المدينة وجها لوجه، فإن شهاب

يواجههم بطرق أخرى. اعتبروا ذلك جزءا من المعركة التي يخوضها أهالي القرى ضد أهالي المدينة، ولتكن النتيجة كما يمكن أن تكون، وماذا ستكون في أقصى حالاتها! فنجان قهوة والمسامح كريم. إنه زير نساء، هكذا خلقه الله، فهل نعترض على حكمته! هم يعرفون أن شهاب لا يغتصب أحدا. ظل شهاب رمزا لكل واحد منهم، ومشى الرجال في المسيرة وهم يتساءلون عن هذا الذي قام به شهاب في المدينة، وتساءلوا عن الذي حدث في كل منطقة زارها، وفي كل موقع حط فيه. تساءلوا عما حدث له أثناء فترة غيابه وعن هذه الحالة التي يرون. شهاب غاب وعاد ليس بنفس الحالة. شهاب كان بحالة، ورجع بحالة أخرى. هم لا يدرون ما الذي حل به، وماذا جرى له. "فظيعة" لم تستطع فعل شيء بحالته، ولم تقل لهم شيئا. قالت فقط إنه متعب، إنه مرهق، وهكذا أجل موضوع البحث في أمره. وحتى عندما جاء الجنود الإنجليز وطلبوا أن يأخذوه إلى المشفى، لم يرض أهالي اليسيرة، وفضلوا أن يبقى عندهم هذه الليلة ليحتفلوا بقدومه. هم لا يستطيعون إرساله إلى المشفى وجاء الناس من كل حدب وصوب لمشاركتهم عودة شهاب. هم لا يستطيعون إرساله إلى المشفى وقد قاموا بذبح الخراف والماعز من أجله. هم لا يستطيعون إرساله إلى المشفى وقد تجمع كل أهالي اليسيرة وغيرها في هذا العرس الذي لم يحدث مثله في تاريخ القرية. فضلوا أن يبقى عندهم هذه الليلة رغم مرضه الجديد الذي أصابه والذي يرون أعراضه وهو جالس على الأرض، وهو يصلي، وهو يركب فرس "الظبع".

سار الرجال، وهم يتابعون هذا الجمع، ويراقبون "الظبع" وحركاته ومشية فرقته الكشفية، ويستمعون إلى النساء وهن يغنين، ويطلون برؤوسهم علهم يرون "شرحة" وهي ترقص أمامه وتدور بين فرقة الكشافة، وبين النساء والرجال. رقصت "شرحة" كثيرا، لكنها كانت تفعل ذلك على غير الحالة التي كانت بها قبل ملاقاته. كانت تظهر عليها علامات الإعياء. تقلصت ابتسامتها، خمدت فرحتها، وهدأت حركاتها. كانت ترقص مداراة لمن حولها أو مداراة لنفسها، كادت تقع غير مرة وهي ترقص، والنساء يرجونها أن تهدأ، وبالفعل هدأت أكثر وأكثر. كانت

تبدو كأنها ترقص، بل كانت تهرول من مكان إلى آخر، كأنها تبحث عن ماء تسقي به زوجها المتعب النائم على فرس "الظبع". كانت ترقص رقصا تائها ليس فيه سوى رائحة من رقص. راحت حيويتها وراحت حيوية رقصها، فباتت ترقص مكرهة لا غير أمام شهاب وأمام هذا الجمع الذي جاء من أجله.

لم تكن مسيرة الإياب مثل مسيرة الذهاب لاستقبال شهاب. كانت العودة أشبه باحتفال فرض على الناس فرضا. لم يكن لحن فرقة الكشافة لحنا فرحا كما كان. أصبح مثل لحن جنائزي، بل هو بين هذا وذاك، ولم يعد هناك حماس كبير بين النساء للغناء. غنت بعض النسوة خاصة قريباته وبعض صديقات "شرحة"، أما الأخريات فلقد انشغلن بمراقبة شهاب النائم المستلقي على ظهر الفرس. إنه مثل القتيل، لا ترمش له عين، ولا تتحرك له شفة، ولا يتحرك له طرف. كانت حركات الفرس هي وحدها التي تحرك هذا الجزء من جسده أو ذاك. أما الشباب، فقد عاشوا حالة من الارتباك، فبين مهدد بالانتقام، وبين متفكر فيما جرى له، وبين لامبال لكل ما حدث ولكل ما سيحدث. أما الرجال، فقد راحوا يسلمون على هذا الضيف تارة، وعلى هذا الجار تارة أخرى، بل وراحت أحاديثهم تتطرق لمواضيع لها علاقة بالعمل وبالزرع الذي تبقى في الحقول، وبالمحصول الذي داسته كل هذه الجموع وأكلته الحيوانات، وتحدثوا عن التجارة مع المدينة التي انقطعت منذ غياب شهاب، وكيفية استئنافها بعد هذه المدة. تحدثوا عن هذا الحر الشديد في "يوم السموم" الذي حاولوا أن لا يضيعوه، فتوجهوا إلى الحقول منذ ساعات الفجر الأولى، فجاء شهاب ليقطع عليهم عملهم، ثم ليقضوا باقي هذا اليوم مع شهاب وقصته. أما الشيخ "عبد النبي"، فلقد سار هادئا، متفكرا في أمر هذه الدنيا الفانية. يركض الناس وراء إشباع رغباتهم، يحرثون الأرض، ويزرعونها، ويحصدون، ويأكلون، ويشربون، وينامون، ويعودون ثانية لممارسة طقوس الحياة. تفكر الشيخ بما كان يقوله شهاب من أن الحياة إشباع لرغبتين اثنتين، لكنه بعد أن أشبعهما، عاد إلى القرية، بل ألقى به أبناء المدينة على أطرافها كما الجثة الهامدة، وحينما وصل الناس، وحينما رأى الناس والناس رأوه، احتكم لهم. هم الذين قرروا كيف

يستقبلونه، وهم الذين قرروا كيف يعودون به إلى القرية. استسلم لهم دون أن يصرح بذلك علانية، وعندما حان موعد الصلاة، صلى، استمع إلى خطبة الجمعة وصلى. هذه هي الطقوس سواء رضي بذلك أم رفض. استسلم للتيار الذي تحدده أعرافهم وتقاليدهم، استسلم لتيار اليسيرة والقرى المجاورة. اليوم هو الجمعة من حزيران، الحر شديد، لم يحس به أهالي اليسيرة من قبل. كانت درجة الحرارة فوق العادة، ورغم ذلك صلى الناس تحت أشعة الشمس الحارقة، واصطلوا بحرارتها، لتذكرهم بحرارة نار جهنم. صلى الناس وشاركوا في استقبال شهاب، وفرحوا بقدومه، وغضبوا لقدومه على هذه الحال. اليوم هو الجمعة، والبعث يكون في مثل هذا اليوم بعد صلاة العصر. ربما يكون بعد ثلاث ساعات أو أربع من الآن، وربما أكثر أو أقل من ذلك كثيرا أو قليلا. ظل الشيخ يسرح في هذه الأفكار، فتقطع عليه تفكيره ضجة الأحاديث التي علت، فيصرخ في الناس: "وحدوا الله". فيوحدونه، ثم "وحدوا الله"، ثم "وحدوا الله"، فيوحدونه ويوحدونه ويوحدونه، حتى قال "الظبع" بصوت عال: "وبعدين معاك يا شيخ، وحدناه، ووحدناه، ووحدناه، وسنظل نوحده. وحد الله يا شيخ، احنا في احتفال أم جنازة!".

لم تطل المسيرة كثيرا. وصل الجمع ساحة القرية. حاول شهاب أن ينزل عن الفرس وحده، لكنه لم يستطع. أغمض عينيه وكز على أسنانه من الألم الذي يعانيه. ساعده الشباب من حوله على النزول. أقبل "الظبع"، فأبدى شهاب رغبته في تقبيل أرض ساحة اليسيرة. استلقى شهاب على الأرض بكامل طوله. قبل الأرض طويلا. كان ينام عليها نوما. قبل الأرض، وعفر وجهه وكل رأسه بالتراب. كان يعفر رأسه بالتراب ويبكي. كان يقول أشياء لا يفهمها الذين من حوله. كان يتمتم تمتمة. يشيح بوجهه جهة اليمين، ويعقبها إلى جهة اليسار. كان صوته يشبه النواح على ميت، أو من يندب حظه، أو يشبه الطقوس التي تقوم بها بنات القرية قبل استحمامهن يوم عرسهن في محاولة للدلالة على حزنهن على ترك بيت الأبوة، لكنه لم يكن يمتلك تلك القوة وسرعة الحركات التي تؤديها تلك الصبايا. طال الوقت الذي قضاه في معانقة الأرض. مرت لحظات صمت وهم

يراقبون فعل شهاب. بكى الذين رأوه على لحن بكائه. خفتت أصوات الطبول، وهدأت أصوات الزغاريد، وسكنت دردشات الرجال. وقف "الحاج مسعود" على درجات العلية، وطلب من الضيوف أن يجلسوا هناك في انتظار الغداء، وطلب من النساء القيام بعملية الطبخ. حمل "الظبع" شهاب على كتفه مثل كيس خيش مليء بالقش، وسار به أمام الجمع الذين أفسحوا له الطريق إلى العلية، وهناك وجد الفراش. أجلسه على إحداها، أجلسه في صدر العلية. لحق به الضيوف و "الحاج مسعود"، وجلسوا حوله. حاول "الواوي" الصعود إلى العلية وراء المختار، فتطلع إليه "الظبع"، وبصق نحوه، فابتعد ووجد مكانا له قرب باب الساحة وجلس.

انشغلت النساء بالنفخ والطبخ. جمعن القدور، وأشعلن النيران. جمعن الصواني من كل بيت وجئن إلى الساحة. جئن بالأرز والخبز، كل منهن تحمل على رأسها ما استطاعت أن تأتي به. أخرج الأولاد الأخشاب من مخازنها، وساعدوا أمهاتهم وأخواتهم في إشعال النار. قام الرجال بتقطيع اللحم، ووضعه في القدور. امتلأت الساحة بمواقد النار. أصبحت حارة جدا وهم يطبخون في شهر حزيران وفي وقت الظهيرة حيث ما زالت الحرارة ترتفع شيئا فشيئا. راحت النساء وجاءت من وإلى الساحة، ولعب الصبية وعملوا مع أمهاتهم، ووجد الشباب بعد أن راحوا وجاءوا مكانا لهم في الظل. جلسوا في الساحة، أو تحت شجرة أو في الغرف السفلى من العلية. لكن درجة الحرارة كانت ترتفع، والنساء يطبخن، والزغاريد تنطلق من هذه الزاوية، ويرد عليها بزغرودة من الزاوية الأخرى. لم تستطع النساء الغناء، كن مشغولات بالطبخ، والنار تفعل فعلها. مسحت النساء العرق عن جباههن، وزغردن، وقطعن الخبز، وحركن اللحم في القدور، وأضفن حطبا في المواقد، ونادين أطفالهن ليجدن لهم مكانا في الظل. همدت حركات الصبية، وطالبوا أمهاتهم بقطعة لحم لم تنضج بعد، وتربع الرجال حول سور الساحة الداخلي، والشباب يتأملون فيما يرونه على درجات العلية وعلى بوابات الساحة.

بات الاحتفال بقدوم شهاب هادئا، تباعدت المدة الزمنية بين زغرودة وأخرى، وكانت النساء الضيفات هن المبادرات في الغالب، فتضطر نساء اليسيرة للرد عليهن بزغرودة، وإذا ما بادرت امرأة من اليسيرة بالزغاريد فإنها تكون لاستقبال ضيفة جاءت تحمل على رأسها صينية قش أو "باطية" عليها بعض الخبز أو الأرز أو السكر. وإذا ما وضعت كل امرأة ما حملت على رأسها، فإنها تنغمس في الأحاديث الجانبية في هذه المجموعة أو تلك، سألت إحداهن: كيف حال شهاب؟.

- على الله.
- كيف يعني؟
- الله يعينه ويعينا.
- ليش؟ شو صار؟
- الله أعلم.
- يعني ماله شيء؟
- زي ما أنت شايفة.
- مش شايفة شيء، ماله؟
- زي ما أنت شايفة.

ذهبت مجموعة من النساء، أخبرن "شرحة" بقدوم ضيفات جديدات، ترددت "شرحة" في الخروج. ألححن عليها، فخرجت مصطنعة ابتسامة وفرحا. اندفعت الضيفات نحوها، قبلنها، حضنها وهن يقلن: "الحمد لله على السلامة".

- أي سلامة يا أخت؟
- الحمد لله، شهاب عاد .. عاد شهاب.
- إن شاء الله عاد.
- وهل أحضر القوشان؟
- لا شفنا ولا رأينا قوشان ولا بطيخ الشام.

فرت دمعة من عيني "شرحة"، وهي ترد على زغرودة أطلقتها إحدى المضيفات. جالستهن بعض الوقت ثم رجعت إلى دارها منكسة الرأس.

أينما ذهب أي شخص في اليسيرة وجد "الظبع" أمامه، يأمر هذا ويأمر ذاك، فأهالي اليسيرة كلهم رعية له بصورة وبأخرى، تطيعه إذا أمر، وتسير إذا سار، وتتجه حيثما أشار، فلم يولد فيهم من تعود الأمر والقيادة مثله، ولم يعتد الناس أن يلتفوا حول أحد من رؤسائهم مثلما التفوا حوله، إذ كان لا يدع لأحد منهم رياسة ولا سلطانا ولا جاها، ولم يكن في اليسيرة من هو جدير بأن يقود الناس في تلك الأزمة الشديدة أكثر منه. أمر "الظبع" الرجال بذبح الخرفان والماعز، وساعد الرجال والشباب في تقطيع اللحوم ووضعها في القدور، وأمر النساء بإحماء النار، وتنقل بين الجالسين وشاركهم الحديث، أو أمر باستقبال الضيوف، أو نقل غرض من هنا، أو غرض من هناك. طلع "الظبع" درجات العلية، وشارك في الأحاديث حول أهالي المدينة الذين اختطفوا شهاب ودقق في وجه شهاب، وفي تعابير وجهه، وفي جلسته التي لا تستقر على حال.

لم يستطع "أبو عمي" هو الآخر أن يستقر على حال، دار بين النساء، وتطلع في القدور، أزال غطاءها وتطلع فيها، وقال: "ما جابش شهاب القوشان". وقف قرب النساء وهن يفتتن الخبز. قضم قطعة منه، وتطلع إليهن، وقال: "ما جابش شهاب القوشان". ثم انتقل إلى الصبايا وهن يتهامسن. دس رأسه بين رؤوسهن، فزجرنه، تطلع إليهن واحدة واحدة وهو يميل برأسه ذي الشعر المنكوش جهة اليمين، ثم ابتعد قائلا: "ما جابش شهاب القوشان". راح عند الرجال والشباب المستظلين بسور الساحة، فوجدهم يتهامسون، أطرق السمع لما يقولون، زجروه، فأجاب: "أنا رجل مثلكم". صرخوا فيه أن يذهب وإلا أخبروا زوجته "ظليعة"، فابتعد وهو يردد: "شهاب ما جابش القوشان". طلع درجات العلية، طلعها درجة درجة وهو يدقق في الجمع في الساحة، وقف برهة وأشار بيديه كأنه ينظم

أمور الحفل، وعلى الدرجة التي تليها تطلع إلى جهة أخرى وأشار بيده اليمين تارة وباليسار تارة، ثم لوح بهما في الهواء وردد بينه وبين نفسه: "ما جابش شهاب القوشان". وفي كل درجة صعدها فعل الشيء نفسه لتجمع في زاوية أخرى من الساحة. دخل العلية، حيث يجلس الوجهاء، دقق في كل منهم، سأله "الحاج مسعود" عن مراده، فقال: "كل شيء تمام، لكن شهاب ما جابش القوشان". جاء "الظبع"، وسحبه إلى الدرجات، ففعل وهو ينزلها مثلما فعل وهو يطلعها، وردد بينه وبين نفسه: "ما جابش شهاب القوشان".

نكس شهاب رأسه في الأرض، وبدت عليه علامات الإعياء. أغمض عينيه وفتحهما. جلس على فرشة خاصة أعدت له، انحنى نحو اليمين، ودق كوعه في الوسادة. مرت لحظات، فقط لحظات، فإذا به يعدل جلسته، ويدق كوعه الأيسر في الوسادة الأخرى. بدا عليه التعب، استمع إلى بعض الحوار الذي جري أمامه، وسها ثانية ثم صحا. لم يستطع شهاب القيام للسلام على ضيف جاء لتوه. مد رجليه نحو الجهة اليمنى، ثم غير اتجاههما في الجهة الأخرى. أغمض عينيه، وصحا على صوت قادم جديد. لم يستطع شهاب الاستقرار على حال، غفا ثم صحا على صوت "أبو عمي" وهو يقول: "ما جابش شهاب القوشان". تحرك نحو اليمين، وتحرك نحو الشمال. فتح رجليه، وضمهما. رفع يده اليمنى، ورفع يديه الاثنتين معا وعقدهما وراء رأسه أو وراء ظهره. تثاءب، وفتح عينيه، وأرخى شفتيه، ودلى رأسه، ثم رفعه، وعاد ليتدلى بكامل جذعه نحو الأرض ثانية وثالثة وسابعة.

هدأت الأحاديث، وتجددت قليلا مع قادم جديد، ثم عادت لتهدأ ثانية. تطلع وجهاء اليسيرة في عيون بعضهم بعضا. ودوا لو ينتهي هذا العرس، لو ينضج الطعام بسرعة، لو يتناول المدعوون طعام الغداء في هذا الوقت إن لم يكن قبله، لو يعود الضيوف إلى بيوتهم. ودوا لو ينتهي هذا اليوم، لو تقوم الساعة هذا اليوم، وكل واحد حسابه عند ربه، لو لم يعرف الغرباء بقدوم شهاب. ودوا لو لم يقيموا مثل هذا الاحتفال الذي صار، لو لم يصرخ الرعاة، لو لم ينادوا في الناس أن

شهاب قد عاد، لو أن النساء لم تزغرد لقدومه، لو أنه لم يختطف، لو أنه ليس من أهالي اليسيرة، لو أن هناك حياة دون نساء، لو أن الناس يعيشون مثل الحيوانات على السليقة، لو كانوا هم من قرية أخرى غير اليسيرة، لو أن شهاب لم يعد، لو أنه لم يولد.

دقق "الظبع" في وجه شهاب. احمر وجهه. ارتجفت شفتاه ويداه. "شخر"، وعلا صوت شهيقه، وسمع صوت زفيره. عاد "الظبع" ودقق في وجه شهاب. نزل درجات العلية، ورد مجاملة على سلام القادمين، وصرخ في وجه طفل مر أمامه، وفي وجه رجل وقف أو جلس، وفي وجه كل من قابله من رجال ونساء، وأزاح بيديه الثخينتين كل ما وجد أمامه، وتجول في هذه الناحية، وفي تلك، وتمشى خارج الساحة. دخل "الظبع" الساحة وصرخ أن يبتعدوا من أمامه، ثم طلع درجات العلية، ودخل المضافة، وتمشى بين الحاضرين وهو يضع يديه خلف ظهره، ثم يرخيهما، ويدقق في وجه شهاب، ثم جلس وسط المضافة.

*****

الساعة الآن هي الثانية بعد الظهر. اليوم هو الجمعة. الشهر هو حزيران.

*****

تنشر الشمس أشعتها في كل جانب، وتلقي بحرارتها على اليسيرة والذين فيها. الحر شديد. يغطي الغبار سطح الطريق المؤدي إلى اليسيرة. يتجمع الهواء الساخن على سطح أراضي القرية، ويتصاعد ببطء إلى السماء. يزداد سمك طبقة الهواء الساخن، يلاحظ ذلك من خلال انعدام الرؤية البعيدة. تبدو الأشجار وكأنها طيف من الأشجار تحركها الرياح. تظهر السهول وكأنها تميد إلى اليمين وإلى اليسار وإلى فوق وإلى تحت، وتظهر البنايات وقد تلوت زواياها، وتذبذبت مواقع حجارتها. تلوذ الحيوانات بالصمت، وتخرج الكلاب ألسنتها خارج جسدها ويتسارع لهاثها.

جلس الرجال والشباب في الناحية الغربية من الساحة محاولين اتقاء شر الشمس وحرارتها. جاء الصبية بمزيد من الحطب وهم منهكون تماما. دست النساء الحطب في المواقد، فالمواقد كثيرة، إذ زاد عددها على الإثنتي عشر. الشمس حارقة، والمواقد تزيدها حرارة. نار تأتي من السماء، ونار تأتي من الأرض. الساحة كبيرة، كبيرة جدا، والمجتمعون كثر. الحرارة شديدة. الهواء يتلوى قبل أن يصعد إلى السماء ليحل مكانه هواء أقل سخونة. الجو خانق، والناس يتلوون من الحرارة، يتنفسون بصعوبة، ملابسهم تشر عرقا، ووجوههم تتفصد العرق، أيديهم تصب ما يشبه الماء. الحر شديد، حر السماء وحر الأرض. الأرض تزداد حرارتها، والناس مجتمعون في الساحة ليزيدوا من الحرارة حرارة. النساء تدس الحطب في المواقد، ويركضن نحو البوابات علهن ينلن شيئا من الهواء الأقل حرارة، يهززن أثوابهن ليسمحن للهواء بالانتشار حول أجسادهن، ويرخرخن الثياب التي لصقت بأبدانهن، يتأففن من هذا اليوم ومما جاء فيه، يلعن الضيوف ويلعن اليسيرة، ويلعن أهالي اليسيرة، ويلعن شهاب الذي عاد، ويعدن إلى المواقد، ويصرخن في بعضهن: "الطبخة انحرقت، اللحم انحرق، الماء طار، الرز انحوق". يصببن الماء ثانية في القدور، ويطير نحو السماء، فتزداد رطوبة الجو، وتزداد حرارة الجو. نام بعض الأطفال في الظل، وصاح بعضهم. اشتد الصياح في الساحة، تصايح الرجال، وتصايحت النساء، وصرخ الأطفال.

امتلأت المضافة بالوجهاء، وجهاء من اليسيرة ووجهاء القرى المجاورة. لم يعد هناك مجال للحديث في مثل هذا الجو. فالجو كان حارا جدا ورطبا جدا. خلع الوجهاء عباءاتهم، وألقوها أمامهم. خلع الوجهاء حطاتهم وعقلهم، وفتحوا أزرار قمصانهم، وخلع الرجال دماياتهم وتسرولوا، فظهرت ملابسهم البيضاء المبتلة بالعرق، وظهرت ملابسهم التي اتسخت بالغبار، وشمروا عن سواعدهم. "تفردوا"، وباعدوا بين أيديهم وباعدوا بين أرجلهم. حملوا "حطاتهم"، وهفوا الهواء نحو وجوههم وصدورهم. لاحظ شهاب الرجال وقد تعروا تقريبا من ثيابهم، انتفض، فصرخ: "لا ..لا". حاول أن يعدل من جلسته، فاقترب منه "الحاج مسعود"

وهمس في إذنه: "لا تفضحنا". صمت شهاب مجبرا. دقق وجهاء القرى المجاورة في وجوه بعضهم بعضا، وتغامزوا للخروج أو أن ينتهي هذا الاحتفال البائس. دخل "أبو عمي". بدا عليه التعب دون أن يستطيع التحدث. تطلع إلى كل واحد، وردد بصوت لا يكاد يسمع: "شهاب ماجبش القوشان". قرأ الشيخ "عبد النبي" آيات من القرآن، همس بها همسا، وكلما سمع تأففا هنا أو هناك، علا صوته بآيات أخرى. تطلع "الحاج مسعود" نحو "الظبع"، ود أن يقوم وينهي واجب تقديم الغداء للضيوف. حافظ "الحاج مسعود" على توازن ما، لاحظ تأفف الجمع، وسأل "الظبع": "كيف الشغل تحت؟". نهض "الظبع" من مكانه، وقف على قدميه وصوخ: "الشغل تحت زي الزفت يا مسعود". وجف الناس خيفة من "الظبع" وقد استقام مقامه، واهتزت يداه وحمل عصاه. تدخل الشيخ "عبد النبي" قائلا: "صلي على النبي، صلوا على الرسول يا ناس". تنهد "الظبع"، ودقق في شهاب. استلقى شهاب على الأرض ببطنه، وتأوه، ولهث. سجد شهاب على الأرض وهو يتأوه، وألقى كوعي يديه على الأرض وتأوه. دقق "الظبع" في شهاب. وقف وسط المضافة، وتطلع إلى الناس. دقق في كل واحد منهم. دار من جهة إلى جهة. احمرت عيناه، واحمر وجهه، وارتعشت رجلاه. مسح العرق عن وجهه، ومسح العرق عن عينيه. دقق في شهاب، ودقق في "الحاج مسعود"، وخطا نحو البوابة بضع خطوات وهو يلوح بعصاه. أحس بالنار تشتعل، وبالحرارة تخنق الأنفاس. رجع ثانية، وقف في منتصف المضافة، ودق عصاه في الأرض، وتطلع إلى كل واحد من الجالسين، وشهاب يرتكي بكوعيه على الأرض، ويرفع مؤخرته لتصبح في أعلى جسده. دق "الظبع" الأرض. دق العصا بالأرض ثانية وثالثة، ثم قال بأعلى صوته: "شهاب .. يا شهاب .. يا شهاب". قفز "أبو عمي" أمامه وقد استعاد بعض حيويته وهمس في أذن "الظبع": "شهاب ما جابش القوشان". قام "الظبع" بحركة من يده فإذا ب "أبو عمي" مستلق على ظهره. حاول شهاب أن يعدل من جلسته، تطلع نحو "الظبع"، فصرخ فيه بأعلى صوته: "شهاب .. هل فعلوها فيك يا شهاب؟". عدل "أبو عمي" من جلسته، وتطلع إلى الحضور وفي "الظبع" وقال: "شهاب ما جابش

القوشان". وقف الوجهاء مرة واحدة، كانوا يلبسون سراويلهم البيضاء المعرقة والملتصقة بأجسادهم تماما. لم يتفوهوا بكلمة، دققوا النظر في "الظبع"، ثم دققوا النظر في شهاب بانتظار إجابة ما. حاول شهاب أن يجلس، فصعب عليه. صرخ "الظبع" بأعلى صوته: "قل يا شهاب .. هل فعلوها فيك؟". لم يستطع شهاب الرد، ارتجفت شفتاه، وصحا من الحالة التي هو فيها. فتح عينيه على مصراعيهما، وتطلع إلى "الظبع"، ثم أغمضهما. دلى رأسه نحو الأرض، وبكى، وصرخ بأعلى صوته.

*****

الساعة الآن هي الثالثة بعد الظهر.

اليوم هو الجمعة.

الشهر هو حزيران.

*****

خرج كل الوجهاء، وقفوا على شرفة العلية وعلى درجاتها، كان الحر شديدا، بقي شهاب داخل المضافة وحده. كانت الرطوبة عالية، وقف الرجال والشباب في الساحة، ووقفت النساء والصبايا، ووقف الصبية. اشتدت الحرارة، وازدادت الرطوبة، وتوقف الصبية عن الصراخ، وهدأ الصراخ تماما. هدأت الأصوات كليا. تطلع كل الذين في الساحة إلى أعلى، وتطلعوا إلى العلية، تطلعوا إلى درجاتها وشرفتها، والنار ما زالت تشتعل تحت المواقد. أصبح الحر شديدا جدا، والرطوبة عالية. اصطف وجهاء اليسيرة في المقدمة، واصطف وراءهم وجهاء القرى الأخرى. انتظر الجميع أن يقول أحدهم شيئا، و "الحاج مسعود" يتردد في القول. تطلع "الظبع" في "الحاج مسعود"، فتقدم الحاج خطوة نحو الحافة، وقال:

"يا أهالي اليسيرة، يا ضيوف اليسيرة، علمتم ما حدث من مصيبة منذ أسبوع، وعلمتم ما حدث في هذا اليوم. ستبقى اليسيرة كما كانت دوما، قرية العز والكرم، قرية الإباء والشموخ، قرية الصغير والكبير، قرية كل الناس. أهلا وسهلا بالضيوف الذين سيتناولون الغداء في قريتهم، وسنتباحث في أمر شهاب. شهاب هو ابن اليسيرة، وسيحاسب فيها حسب الأعراف والتقاليد. أكملوا صنع الغداء، فالعصر يقترب، وسنصلي معا".

زاحم "أبو عمي" الرجال عند حافة العلية، وصرخ: "شهاب ما جابش القوشان". أمسك به "الحاج مسعود" وأبعده إلى الوراء.

دق "الظبع" عصاه في أرض الشرفة، ورفعها عاليا والعرق يتصبب من كل مكان من جسده، وبرزت عروق يديه، مسح عرق وجهه وقال:

"أنا ابن اليسيرة، أنا "الظبع"، "الظبع" الذي نام في كل القرى وفي أكثر من مدينة، ونام في الجبال وفي المغائر، وعلى الأشجار. نحن كلنا سنحاكم شهاب، لنجمع كل الحطب ونوقده ونلقي شهاب فيه. اليسيرة تصون كرامتها برجالها الأشداء. شهاب يجب أن يموت اليوم".

حاول "أبو عمي" التقدم ثانية، أمسك به الرجال من وراء "الظبع" ومنعوه من التقدم، فصرخ: "شهاب ما جابش القوشان".

رفعت "شرحة" يدها من بين الجمع في الساحة، شقت ثوبها ووقفت على رجم الحطب، وقالت:

"شهاب مش من الرجال، كل جماله انتهى. لا أريد شهاب زوجا لي، شهاب طالق طالق طالق. ليمت بنفس الطريقة التي رجع فيها إلى اليسيرة. شهاب يجب أن يموت".

دس "أبو عمي" رأسه بين الرجال، أحنى قامته وباعد بين الأرجل، لكنه لم يستطع، وسمع بقايا صوت يقول: "القوشان".

*****

الساعة الآن هي الثالثة وعشرون دقيقة.

اليوم هو الجمعة.

الشهر هو حزيران.

*****

وقف الشيخ "عبد النبي" على سطح العلية، وأذن لصلاة العصر:

"الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمدا رسول الله

حي على الصلاة

حي على الفلاح

الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله"

ظهرت فجأة كتيبة الجيش الإنجليزي وهي تطوق المكان، جاء أفرادها بعرباتهم، وبفرسانهم، ومشاة على أقدامهم. هرول "الواوي" بجسده الممتلئ وراءهم، وشوهدت ابتسامة على وجهه. رفع "الظبع" عصاه وألقاها في الهواء. علت أصوات الحاضرين. انطلق الصراخ من كل جانب، صراخ الرجال والشباب والنساء والصبايا وصراخ الصبية. انطلق الصراخ من وسط الساحة وعلا مع

الهواء الساخن وبخار الماء المتصاعد. عمت الفوضى وسط الساحة والناس حيارى فيما يفعلون. ازدادت حرارة الشمس ورطوبة الماء وصراخ الناس. أطلق الجنود عيارات نارية في الهواء، وسمع صوت قائد يصرخ: "كل واحد في مكانه". اقتحم الجنود الساحة. صعدوا درجات العلية. اقتحموا المضافة. حملوا شهاب، وراحوا خارج القرية، والواوي يركض وراءهم، ولوحظت أفعى السقيفة وصغارها تلحق بهم.